محمد روبيو
سجينُ قفصِ الذكريات
رواية
دار بسمة
للنشر الالكتروني

سجين قفص الذكريات

اسم الكتاب: سجين قفص الذكريات

اسم الكاتب: محمد روبيو

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-337-241021

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2024م / 1446هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

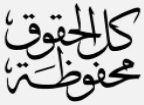

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

سجين قفص الذكريات

رواية

محمد روبيو

بسم الله الرحمن الرحيم

في أول أيام سجني، جلست في ركن زنزانتي المظلمة. لم يكن فيها سواي؛ زنزانة مظلمة بأربعة جدران ونافذة. شعرت بالاشمئزاز حقًّا من ذلك الوضع المقرف في أيامي الأولى... لكن بعد أربعة أشهر أدركت أنه النعيم بعدما كنت أظنه جحيمًا، راحة شبه أبدية. تخيَّل معي مكانًا ليس فيه سواك وأفكارك وآرائك؛ أنت مَلك تتربع فيه على عرشك دون أن ينافسك عليه أحد. صدِّقني، لم أرغب في الخروج منه يومًا... أنا أعيش سعادة لا يدركها الكثيرون. يا ناس، فلتعلموا أنني لست كما تظنون، ولست كما تفكرون. أنا شيء غير اعتيادي أبدًا... لا تزعجوا أنفسكم بمحاولة فهمي.

ما هذا؟! هم يقولون إنني مجنون! حسنًا، فليكن. أنا قمة الجنون! هم لا يعلمون أنه قبل أسبوع من الآن جاءت أمي قائلة:

– بني، لقد وافق القاضي على إخراجك بكفالة، وسنرتب أوراق خروجك من هنا. لا تقلق يا صغيري.

فأجبتها:

– أمي، أنا لن أخرج من هنا أبدًا!

فقالت أمي بصوت يائس، خشيةً على صغيرها:

– لكن يا بني، انظر حولك لهذا المكان. أنا أخشى عليك أن تُحن من هذه الوحدة الكئيبة.

صمتُّ للحظة، ثم باشرت قائلًا:

"وحدة... وحدة في المكان والزمان،

وحدة في القلوب والأذهان.

الوحدة ليست بالشيء السيئ أبدًا...

الوحدة هي أن لا أحد يزعج راحتك مع نفسك،

الوحدة هي أن لا أحد يجرح قلبك،

الوحدة هي أن لا أحد يكسر بخاطرك.

فقط أنت والهواء والذكرى،

فقط أنت والصمت والعزلة.

لقد أصبحت الوحدة أملنا الوحيد للهروب من الواقع الكئيب الذي نعيشه،

فلا صوت للمشاة في الطريق،

ولا ضجيج للباعة على الرصيف،

ولا سيارات مزعجة تلوث هواء القلوب،

ولا نميمة نساء أمام الأبواب،

ولا رجال يراقبون من داخل المقاهي.

فقط أنت ونفسك والهواء والخيال.

عِش كما شئت، فلا أحد يراك.

اكتب على سجيتك، وغُص في خيالك،

وكن كما تريد أن تكون،

فلا أحد يزعجك أو يسترق النظر إلى مشاعرك المخطوطة بين القوافي والحروف.

أنت وحدك، والصمت الحكيم بجانبك، ورب العباد داخلك.

فلا أحد يغضبك، ولا أحد يستفزك.

فكن كما تريد أن تكون، فها أنت وحدك، ولا شيء يمنعك من بلوغ نفسك المفقودة.

أعجبتني هذه الوحدة كثيرًا، وحقًّا...

هي فراغ لا نهائي، أنت فعلًا حر فيه، فافعل ما شئت.

وأنا، يا أماه، وحدي،

فقط أنا ونفسي والوحدة والصمت والهدوء، وبعض من الذكريات تؤنسني.

هي فعلًا وحدة".

بعد هذا الخطاب الطويل الذي ألقيته، باشرت أمي بالبكاء.

– "ماذا بك يا بني؟ أرجوك، أخبرني".

– "لا شيء يا أمي، أنا بخير تمامًا، وفي الحقيقة أنا سعيد هنا. وإن أردتِ أن أكون أكثر سعادة، فتوقفي عن البكاء، ولتعلمي أن ابنك حر يا أماه، وليس مسجونًا. السجناء هم من يمشون خارج هذا المكان!"

– "لكن إلى متى يا بني؟"

– "أمي، لا أعلم. لكن ما دمت أستطيع رؤيتك، فأنا أعلم أنني أستطيع أن أصمد أكثر".

– "حسنًا بني، كما تريد. وكلما اشتقت إليّ، فاطلب رؤيتي ولا تتردد، سآتي إليك في أي وقت".

– "لكِ ذلك يا أمي، سأفعل".

لقد رفضتُ عرض الخروج من هنا لأنه لا يزال أمامي الكثير والكثير مما أقوم به، ناهيك عن الارتياح الشديد الذي تشعرني به هذه الوحدة، كما سبق وذكرت.

تعلمتُ أشياء كثيرة من مكوثي هنا، تعلمت أن الحياة لا تتوقف عند أحد، وتعلمت أن لا أحد مسؤول عن خساراتنا سوانا.

تجولتُ خارجًا سنين عديدة، ولم أتعلم منها شيئًا جيدًا سوى ما أنا عليه الآن. وفي الحقيقة، استطعت أن أصنع شخصًا بسيطًا بطريقة معقدة... شخصًا لا يمكن تقليده. نعم، لقد صنعت نفسي واخترت عالمي، عالمًا لا منافقين فيه ولا خائنين. بالتأكيد كانوا قبلًا، لكن الآن لا أحد. هههههه، كيف سيكونون؟ وأنا وحدي...

نعم، نعم أعلم أني مريض نفسيًّا، لأني أهتم بنفسي فقط. لا وجود لوقت لشخص آخر بين ساعاتي الأربع والعشرين.

كاعترافٍ فقط لكم، يا من تقرؤون هذه الكلمات الآن: عندما اخترت الوحدة كنتُ مجبرًا على ذلك، فلم يسعني أي حضن، ولم يحتمل سقوطي أي كتف. فقط سخروا وفرحوا لذلك كثيرًا... حينها ظننت أن حياتي أصبحت دمارًا، وأصبحت أعتقد أنه لا سعادة في هذا العالم. إلى أن اكتشفت بعد أربعة أشهر أنني كنت في وهم عظيم، كنت في حفلة تنكرية بين مجموعة من الزومبي يرتدون أقنعة على شكل وجوه بشرية تحب وتفي بالعهود وتصدق القول.

اللعنة، يبدو أنه كان مغشيًّا عليّ حينها، حتى إنني أصبحت أقول: يا ليت الموت يأتي!

أصبحت أُعرِّض نفسي للألم لكي أنسى.

لكن حتى الألم سئم مني فرحل عني.

ولم أعد أتألم،

فقط ندوب وجراح، دماء بلا ألم.

كيف لي أن أهرب من واقعي الغريب،

الذي يحيطني بالخذلان والخيبات؟

فلا يطعنني رمح الموت، ولا أعيش نعيم الحياة.

فأنا ما بين موت وحياة، كيف لي أن أعيش وأنا ميت؟ وكيف لي أن أموت وأنا حي؟

بعد كل هذا، وبالصدفة، اتضح كل شيء... لقد بالغت. أجل، بالغت كثيرًا في انفعالاتي، وفي تفكيري، وحتى في اهتمامي.

لا أزال أذكر كل الكلمات التي قلتها، أقسم أنها لا تزال ترن في أذني إلى الآن... رسالتي الأخيرة قبل أن أودع القاضي في المحكمة. خاطبته قائلًا:

– "أرجوك، احكم بعدل، فهذا القلب داخلي لا يتحمل كل هذا الظلم يا سيدي".

– "أعلم ما أفعل، لا تملِ عليَّ ما يجب فعله. غب الآن خلف القضبان، وليقفل ملف قضيتك أيها السجين".

– "أهـذه عـدالتك يا سـيدي؟ همـم... إن كنـت مقتنعًـا، فسأرضـى بحكمك وأغيب كما أمرت. سأحاول أن أصبح شخصًا أفضل... شخصًا ترضى به يا قاضٍ".

– "جرمك عظيم، لا يسمح لك بالتغيير".

– "سترى كيف سأتغير، حتى إنك لن تعرفني. أعدك بذلك. كأمنية أخيرة، أريد أن أُدخل معي مذكرتي وأقلامي، يا سيدي. أرغب في تدوين محطات تغييري للأفضل، لكي أجعلك شاهدًا على ذلك يومًا ما".

– "فليكن لك ذلك".

اليوم الأول... زنزانتي الكئيبة.

البـاب موصـد، والظـلام حالـك في الخـارج. إضـاءة خافتـة طفيفـة، وصـمت يسـودها، وأحيـانًا ضـحكات مجنونـة، لا سـعيدة ولا حزينـة. أنا وحدي، أو أنا وبضعة مجانين معي. لا أدري إن كنت العاقل بينهم، أم أنني الأكثر جنونًا. تحدثت قليلًا، وصمتُّ كثيرًا، أو العكس. لا أذكر ما يحدث بالضبط داخل هـذه الزنزانـة الكئيبـة. زنزانـة موصـدة، داخلهـا يقبـع قفـص

الذكريات الخاص بي. أتحدث إلى نفسي عن أمور مضت؛ لحظات حزينة، وأخرى أكثر بؤسًا. أتمنى حدوث أشياء مستحيلة، حسب ما مررت به ولا أزال أمر به إلى الآن.

لكني اعتدت الآن.

أتذكر وعودًا كاذبة مرت بلمح البصر، الأمر الذي يصيبني بالجنون أو بنوبة غضب عارمة. الأمر سيان بالنسبة لي. في كلتا الحالتين، أحاول تمالك نفسي، لكي لا أكسر شيئًا أو أهشم أصابعي، كما كنت أفعل في معظم الأحيان.

يصعب عليّ ذلك، صحيح، لكن لا أحد سيخط هذه الكلمات اللعينة إن لم أفعل أنا ذلك. أقلام داكنة، وأوراق بيضاء... ماضٍ تعيس، وزوايا أربع مظلمة.

اتكأت على الجدار أنقش عليه كلمات الحرية، الحرية التي فقدتها حينها وامتلكتها الآن. بعد تلك الأشهر الأربعة، بحثت عن مكان نقشي لتلك الكلمات، وأضفت إليها: "لا حرية خارج هذا المكان". من هنا أدركت أن سجن الإنسان الوحيد هو عقله، وقيده هو قلبه ووعده. هذا جعلني أراجع الكثير من الأمور التي وصلت إلى حل لها... كلحظة إدراك

فقط. أنا لا أكرهك أيها القاضي، فلولا ظلمك لي لما اكتشفت هذه الجنة، واكتشفت من أنا بحق.

في بداية الأمر كان يبدو صعبًا جدًّا حتى إنني شككت في أن أحتمل أسبوعًا واحدًا. كم من دمعة قد ذرفت، وكم من صرخة قد صرخت، وكم من أحاديث عني قد سمعت، ولما أردت الدفاع عن نفسي والرد، تالله ما استطعت، فقد ظننت نفسي قد مت، ولا حياة لي بعد أن أُهملت. ففي طريق البؤس مشيت، وكلما قصدت السعادة زحفت، لم أكن ضعيفًا قط، فلقد طالما بحثت عن القوة.

وليعلم كل من يعرفني ومن لا يعرفني، أنه لا يعرفني. ليعلم أني ما استسلمت قط، ولا تراجعت، وعن معاناتي كتبت. لقد كتبت... كتبت كثيرًا بعدها، لكن لم يكن أحد يقرأ خلال أيامي الأولى. لقد كان لي حلم، وحلم كبير أيضًا. كنت استثنائيًّا في كل شيء، حتى مبادئي كانت تختلف عنهم... لكن تبدد كل شيء. كان ذلك في شهر أكتوبر لسنة 2023، حيث إنه وفي ليلة خبيثة تم القبض عليَّ. حاولت الدفاع عن نفسي بالأقوال والأفعال، لكنهم كانوا كثرًا.

– من أنتم؟ ولماذا تحاولون القبض عليّ؟

– نحن السلطة. لقد أتتنا أوامر بأنك تخطيت جميع الحدود وتمردت على المعتاد. لقد بالغت في جرائمك كثيرًا يا هذا، وحان أوان العقاب.

– إلى أين ستأخذونني؟

– إلى المحكمة، حيث سيُقرَّر مصيرك على يد القاضي.

وانتهى بي الأمر ماثلًا بين يدي القاضي وظلمه، وسُجنت بتهمة لا أعرف ما هي، ولا أعرف حتى بأي ذنب أذنبت لكي أُعاقب. الآن، مرت ستة أشهر منذ دخلت هذا القفص. عندما دخلت الزنزانة، كانت عفنة تمامًا، وقضبانها صدئة، وكأنه لم يسكنها أحد سواي من قبل. والآن، وبعد كل هذا الوقت، أصبحت جميلة للغاية... كيف ذلك؟ أنا لم أغير بها شيئًا، بل ملأتها بالأوراق الملقاة في كل مكان، منها ما في الأرض ومنها ما هو معلق على الحائط.

حينها فقط أدركت أن تلك الزنزانة لم تكن عفنة، وأنها لم تصبح جميلة، كل ما في الأمر أنه إيهام للعقل البشري الذي يصور لنا الأشياء التي لا نحبها بطريقة بشعة، ويجعل لنا من الأشياء الأخرى أشياء مقدسة، لا مجال للمقارنة بينها وبين غيرها من الأشياء والأماكن وحتى الأشخاص! هذه قاعدة تنطبق على كل هذه الأصناف التي ذكرتها.

الطبيب النفسي

تكررت زيارات والدي لي خلال هذه الأشهر الست. كان يطرح سؤالًا... سؤالًا واحدًا فقط:

- إلى متى؟

فكنت أجيب دائمًا:

- لا أدري يا أبي، ربما حين يأتيني النوم، وتقلب الكلمة من الحرف الأخير، وتضاف نقطة سوداء في الأخير، وتكون آخر نقطة في حياتي هذه.

- حسنًا، سأرى بخصوص هذا الموضوع.

لقد غادر والدي مستاءً جدًّا في آخر زيارة له. بعد عودته للمنزل، تحدث إلى أمي قائلًا:

- ما رأيكِ في موقف ابنكِ؟

- لا أدري، حاولت مرارًا وتكرارًا إقناعه بالعدول عن رأيه، لكن...

- لكن ماذا...؟

– لكنه يأبى الخروج قائلًا إنه سعيد، وسيقضي ما تبقى من حياته هناك.

– ابننا قد جُن تمامًا، بالتأكيد. هو ليس نفس الشخص. نحن نفتقده كثيرًا، يجب علينا إيجاد حل لهذا.

– أي حل وقد حاولت إقناعه بشتى الطرق؟

– سأرسل له طبيبًا نفسيًّا. هذا هو حلنا الوحيد.

– ابني ليس مريضًا نفسيًّا.

– إذن ابنك ماذا؟ هل تريدين أن يقضي حياته في تلك الزنزانة العفنة، كما يقول هو؟

– حسنًا، افعل ما تراه مناسبًا.

تحدث والدي إلى الطبيب، واتفقا على أنه سيزور زنزانتي بعد أسبوع. لم يخبرني والدي بشيء عن هذا الموضوع، حتى إنه لم يزرني بعدها. بعد مرور الأسبوع، أتى الطبيب... دخل زنزانتي دون إذن مني حتى، جلس يحدق بي، وأحدق به، دون أن يقول شيئًا، ودون أن أسأله أنا عن أي شيء، فأنا لا أعلم عنه شيئًا ولا عن سبب زيارته لي.

ظل نصف ساعة دون أن يقول شيئًا. أنا فقط أثار انتباهي للدقائق الأولى، ثم عدت إلى أوراقي وقلمي. لم أعره اهتمامًا بعدها... فخرج بعد تمام الساعة، ولم يحرك ساكنًا، أو يحاول التعرف عليَّ. اكتفى خلالها بالتحديق إليَّ وحسب.

عاد إلى والدي ليخبره بأنه يحتاج للتعرف إليَّ أكثر، ويريد معرفة الأماكن التي كنت أزورها، والأصدقاء الذين أرافقهم، وحتى الفتيات منهم. وبدأ بحثه من والدي، فسأله:

– كيف كان ابنك من قبل هذا؟ هلّا حدثتني عنه باختصار؟

– ابني لم يكن هكذا قط. لم يكن مثل هذه الجثة الحية المتشائمة. لقد كان هو رمز الحياة في هذا البيت، كان مصدر كل سعادة، ولو غاب عن البيت ليوم واحد، تشعر أن المنزل مهجور تمامًا. لم تكن البسمة تفارق شفتيه.

– حسنًا، هذا يكفي. هلّا ناديت زوجتك؟ أريد أن أسألها نفس السؤال.

جاءت أمي، جلست بالقرب من والدي، وأعاد الطبيب طرح سؤاله ذاته، فأجابته أمي:

– ابني كان كالطفل الصغير تارة، وتارة أخرى رجلًا يتحمل المسؤولية ويمكن الاعتماد عليه. لم يكن يخفي عني شيئًا قط، كلما استاء أو حزن جاء إلى حضني.

– أظن أن هذا يكفي. هل لديه أي أصدقاء يمكنني أن أسألهم عنه؟

– أجل، هناك شاب، إنه صديقه منذ الطفولة يُدعى عليًّا. هل ندعوه إلى هنا يا حضرة الطبيب؟

– لا... لا داعي لذلك، فقط أعطوني رقمه وعنوانه، سأتصل به وألقاه في المكان الذي يجتمع فيه بابنك. هذا سيكون أفضل.

– حسنًا.

أعطى والدي رقم عليٍّ للطبيب، فاتصل به وطلب منه موعدًا ليلتقيا فيه. فقال له الطبيب:

– في أي مقهًى تجلسان أنت وصديقك لنلتقي فيه؟

– عن أي مقهًى تتحدث؟ نحن لا نجلس في أي مقهًى، بل نجلس في التل خارج المدينة.

– حسنًا، فلنلتقِ في الطريق المؤدي إلى الجسر. نلتقي هناك، وبعدها خذني إلى ذلك المكان.

التقيا بعد يومين، وأخذه إلى ذلك المكان. فباشر الطبيب قائلًا:

– مكان جميل يا علي، هل اخترته أنت؟

– لا، بل كان هو، إنه مكانه المفضل.

– أجل... أجل، هنا يستطيع التدخين بهدوء دون أن يزعجه أحد، أليس كذلك؟

– يبدو أنك تتحدث عن الشخص الخطأ. هو ليس الشخص الذي تظن... لم يقبِّل سيجارة من قبل، ولم يضاجع قنينة خمر قط.

– إذًا ماذا كان يفعل حينما يغضب أو يحزن أو يكون سعيدًا؟

– لقد كان "يكتب".

– يكتب!!؟

– أجل، يكتب. إنه كاتب بارع. لقد زرته، صحيح؟ لا بد أنك لاحظت الأوراق الملقاة في كل مكان من حوله.

– أجل، لقد رأيتها، لكني لم آبه لها؛ لأني كنت في حصة لتشخيص هيئته وتصرفاته. عمّاذا يكتب؟

– عن العالم، عن المجتمع، وعن نفسه!

– هلا حدثتني عنه أكثر؟ لأول مرة أمر بحالة كهذه، شخص متداخل...

– إنه شخص استثنائي، أشك أن تجد له مثيلًا على هذا الكوكب. هادئ كسماء الحر، وصاخب كموج البحر، صلب كالصخر، ولطيف وحساس كقلم الحبر. إنه ذلك الشخص الذي لا يغضب أبدًا، وفي نفس الوقت يغضب بسرعة. كل شيء فيه مميز. أؤكد لك يا سيدي الطبيب أنك لن تمر بشخص مثله، ثم إنه ليس مريضًا نفسيًّا، بل على العكس، هو من أكثر الأشخاص عقلانية.

– وما رأيك فيما يقول عن حريته؟ بالنسبة لك، هل هذا صواب؟

– هو يعلم ما يفعل، ليس لي أي رأي في هذا.

– إذًا، وقبل هذا، ما السبب الذي يجعله يصر على ما يفعله؟ أنت صديقه المقرب يا علي، عليك أن تعلم هذا، أليس كذلك؟

– أعلم ما فيه الكفاية، لكن لن أقول شيئًا في هذا الصدد.

– لماذا؟ ألا تريد مساعدة صديقك في الخروج من حالته هذه؟

– بلا، أريد، لكني الآن أرغب في أن أجعلك تتعرف عليه، وستعرف السبب عندما تحادثه. هو وحده من يستطيع أن يجعلك تستوعب فكره.

– حسنًا، هكذا إذًا، لا بأس! أريد أن أسألك عن علاقاته العاطفية. هل في حياته فتاة ما؟ هل تعرض مؤخرًا لصدمة أو ما شابه؟

– لقد كان كتومًا في مثل هذه الأمور، ولا يخبر عنها أحدًا، لذلك من الأفضل استشارته في الموضوع.

– أنت ترفض تقديم المساعدة يا علي، صديقك يحتاجك.

– لا، أنا فقط أقوم بواجبي كصديق له، لا أقل ولا أكثر.

– حسنًا، لا بأس. هل لديه أي أصدقاء آخرين؟

– ليسوا بأصدقاء مقربين، لكن يمكن أن تقول معارف.

طلب الطبيب من علي أن يعطيه أرقام سعد وسفيان، وقد فعل. طلب لقاءهم في أحد الأماكن العامة داخل المدينة، وعند لقائهم باشر

بسؤالهم نفس السؤال: "ماذا تعرفون عنه؟" لم يقولوا شيئًا سوى أنه كان بئر أسرارهم، شخصًا تستطيع أن تحكي له عما يؤلمك دون القلق فيما بعد عن أسرارك. لم يضيفوا شيئًا بعد هذا.

غاب الطبيب أسبوعًا كاملًا من أجل تحليل كل تلك الأشياء التي عرفها عن مريضه، وتحضير أسئلة مناسبة تسعفه في تشخيص حالته هذه.

بعد مضي ذلك الأسبوع، توجه الطبيب إليَّ، وهذه المرة طرق الباب ثم دخل بعدها:

– مرحبًا، أنا الطبيب أحمد.

– أهلًا بك سيدي الطبيب، لكني لست مريضًا، من طلب منك القدوم؟

– والداك... أنا طبيب نفسي جئت لتشخيص حالتك. عذرًا، فقد أتيت المرة السابقة دون أن أقول شيئًا أو أعرّف نفسي.

– لا عليك. إذًا، سيدي الطبيب، بماذا أستطيع مساعدتك؟

– نادني أحمد فقط. المهم، أردت أن أسألك بضعة أسئلة.

– أرجو ألا تكون أسئلة صعبة أو محرجة... فأنا نسيت كيف أتعامل مع "البشر".

– ههه، لا تقلق، هي أسئلة سهلة.

– تفضل إذًا.

– ما هو لونك المفضل مثلًا؟

– كنت أحب الأحمر، لكن خلال السنوات الأخيرة أصبح لوني المفضل هو الأسود.

– كم علاقة عاطفية مررت بها في حياتك؟

– هل من الضروري أن أجيب عن هذا السؤال؟

– نعم، هذا سؤال مهم!

– واحدة.

– هذا يمكن أن يفسر الكثير من الأشياء! كم فتاة أحببت؟

–... واحدة.

– ما هذا يا رجل! ألم تشعر بالملل من فتاة واحدة؟

– سيدي أحمد، عليك الحذر من كلماتك. أنا لا أحبذ مثل هذا الكلام.

– لماذا؟ هل سبق وأن خلَّف أحدهم جرحًا في قلبك؟

– الكثير من الجراح، ليس فقط جرحًا واحدًا. لذلك لم أعد أتألم من شيء، أنا فقط أغضب، فقد تأذيت بما فيه الكفاية من جميع من حولي.

– الكاتب أريان، لقد جمعت الكثير من المعلومات حولك. أنت مثير للاهتمام حقًّا يا صاح.

– إذًا، أنت تعرف عني الكثير من الأشياء مسبقًا!

– نعم، لكن لم تفدني تلك الأشياء بشيء!

– لماذا؟ ألم تكن كافية؟

– كانت معلومات متداخلة، منطقيًّا تؤهلك لأن تكون شخصية متوازنة ولا متوازنة في نفس الوقت. تضاربت لديَّ تلك المعلومات والصفات التي جمعتها عنك من فرضية لأخرى!

– مثلًا... أعطني فرضية من فرضياتك، سيد أحمد.

– حسنًا، هي كالتالي: أولًا، يمكن أن تكون أنت ذلك الشاب العاشق أريان، الذي هجرته حبيبته وأصيب بحالة اكتئاب حادة!

– أمم، نعم، وماذا بعد؟

– ثانيًا: يمكن أن تكون قد تعرضت لصدمة حادة سببت لك انفصامًا في الشخصية، مما جعلك تنطوي على نفسك وترى فيك كل ما تحتاج، ولست بحاجة لأي شخص آخر.

– هذا مثير للاهتمام حقًّا. أهناك مزيد؟ أكمل من فضلك...

– ثالثًا: قد تكون أُصبت بفوبيا من نوع ما جعلتك تبتعد إلى أقصى الحدود، وهناك احتمال ضئيل بأن تكون مصابًا بالتوحد.

– هذا ما لديك، سيد أحمد؟ هل من احتمالات أخرى؟

– نعم، قد تكون بخير تمامًا، وما هذه إلا تمثيلية منك!!! لكن لا تأخذ هذا بعين الاعتبار، كل هذا مجرد معرفة مسبقة من حديثنا والمعلومات التي حصلت عليها من أصدقائك وعائلتك.

– يؤسفني أن أخيب ظنونك، سيد أحمد. ليس بي شيء من هذا، ثم إني لا أعاني من أي مرض نفسي. أنت فقط تتعب نفسك، وفِّر جهدك لشخص يحتاجه.

– أنت الآن حالتي الوحيدة، ويجب أن أشخصك. لقد عالجت الكثير من قبلك، لا يمكن أن أفشل الآن.

– حسنًا، افعل ما تشاء. قلت لك ما أملك، افعل بهذه المعلومات ما تريد.

غادر بعدها السيد أحمد حائرًا من أمره. لقد كان الأمر غريبًا عليه نوعًا ما... وبعدها بيومين زار والدي.

– مرحبًا، سيد جواد.

– أهلًا بك أيها الدكتور، كيف حالك؟

– بخير... بخير.

– خيرًا، ما سبب زيارتك المفاجئة؟ أهناك تطور في بحثك بشأن ابني أريان؟

– ابنك يا سيد جواد، لقد بدا لي مختلفًا عن أي مريض قد درست حالته من قبل!

– هل حالته صعبة يا دكتور؟!

– لا... لا، ليس هناك ما يدعو للقلق... لا تقلق. لكن بعد حديثي إليه، لقد بدا لي شخصًا ثابتًا ومتوازنًا فكريًّا تمامًا. ليس هناك أي إشارة على وجود خلل في جهازه النفسي. حاولت دراسة حركاته وردَّات أفعاله، لكنه أشبه بالحصن، تصرفاته باردة تمامًا، وعينه بالكاد ترمش عند الحديث. هو شخص واثق من نفسه كثيرًا... إنه نادر، صراحة.

– إذًا، ما الحل؟ هل لديك أي فكرة؟

– من الآن فصاعدًا، سأتوقف عن تقاضي أي أجر منك، سيد جواد.

– لماذا يا دكتور؟ هل ستسلم حالته؟ ليس هناك طبيب بمهارتك في البلد كله، أين سأجد آخر مثلك؟

– لا، لن أسلمها. لكني سأدرس حالته من أجل إشباع فضولي. لقد أثارني فعلًا ابنك أريان. سيكون هذا تحديًا بالنسبة لي.

أصبح الطبيب يزورني مرة كل أسبوع، يحادثني نحو الساعة ثم يغادر. كانت تتكرر أسئلته في كل مرة ويلقى مني نفس الإجابة. ثم إنه بدأ يفتح معي مواضيع أخرى تخرج عن وظيفته ويحدثني عن حياته وإنجازاته. كنت فقط أنصت إليه دون قول أي شيء أو إبداء أي رأي. لم يكن السيد أحمد رجلًا كبيرًا في السن، بل كان في قرابة الأربعين من عمره، يتحدث كثيرًا وباستمرار...

مرت سنة منذ أن دخلت زنزانتي، وأربعة أشهر منذ بدأ الطبيب أحمد بزيارتي بانتظام. تدريجيًّا، بدأت أتحدث معه عن بعض اللحظات المشابهة التي مرت عليّ. وبعد مرور الشهر الأول من السنة الثانية، قرر الطبيب أحمد الاستسلام أمامي. خاطبني قائلًا:

– "ما أنت سيد أريان؟"

– "ماذا؟... أنا فقط أريان ولا شيء آخر".

– "لا، أنت أكثر بكثير. أنت أشبه بعقدة سهلة ويستحيل حلها. أجبني فقط، كيف أمكنك أن تعيش ببساطة وتكون شخصيتك معقدة لهذه الدرجة؟ أنت كتداخُل النار والماء في شيء واحد!"

– "لا أعلم، لكني وُجدت هكذا!"

– "سررت بمعرفتك، سيد أريان. أنا أستسلم. سأعلن تركي لحالتك هذه، فقد فشلت. إلى اللقاء!"

– "سيد أحمد، لقد جهزت لك كومة من الأوراق. إن وافقت، أريدك أن تنشر كتابي هذا باسمي".

– "هذا من دواعي سروري، سيكون هذا مثيرًا للجدل! طبيب نفسي يقوم بنشر كتاب مريضه السجين!"

– "هذا الكتاب قد يساعدك على معرفتي. اقرأه بعد نشره، وعد إليّ بعد ذلك. قد أساعدك حينها!"

– "سيد أريان، أتشفق عليّ؟"

– "لا... لكنك رقت لي، سيد أحمد. فرصة سعيدة".

– "إذن أعدك بأن يتم نشر كتابك خلال شهر واحد. يا رجل، لقد أثرت فضولي حقًّا، أرغب في معرفة من تكون!"

وبهذا انتهى لقائي بالسيد أحمد الذي أصبح مهووسًا بي أكثر من السابق. أما عن كتابي، فقد كان يحكي عن إنسان عاش وسط الحيوانات، في حظيرة أو أقل من ذلك. كان هناك بشر آخرون، لكنهم قلة. من

الصعب تصديق ما مرّ به من مواقف ومعاناة. كيف فقدَ إنسانيته ومال إلى تصرفاتهم وحماقاتهم ولا وعيهم. بالكاد نجا من أنياب تلك المخلوقات المفترسة التي تغدر من الخلف. لكنه أدرك في النهاية أن الإنسان عليه أن يكون إنسانًا، فتعلّم كيف ينجو من عضة الكلب الذي يحسبه وفيًّا، وكيف يحذر من أنياب الحية ذات الجلد الناعم... وتعلم أيضًا كيف يُبقي الذئاب بين ناظريه، لا خلفه.

بعد مُضي تلك الفترة، جاءني السيد أحمد مساءً قائلًا:

- "كيف حالك، سيد أريان؟"

- "بخير، كما تعلم. أنا أحب هذا المكان، وما دمت فيه فسأكون بخير".

- "هذا جيد. لقد تم قبول كتابك ونشره. تفضل، هذه نسخة منه، وقد وضعت صورتك على غلافه".

- "ومن أين أتيت بهذه الفكرة؟ أنا لا أفضل الشهرة إطلاقًا".

- "إذن، لماذا طلبت مني نشر كتابك؟"

– "هناك سبب طبعًا، لكن كنت أتمنى أن تعرفه بمفردك. خيبت ظني بك، سيد أحمد".

– "لا تقلل من شأني، سيد أريان. لقد كان تحليل كتابك أسهل من تحليل ردات فعلك..."

– "إذن، هلّا أخبرتني بمَ قد يفيدني ذلك الكتاب أو بمَ قد يفيد الناس؟"

– "أولًا، أريدك أن تعدني بأن تقول لي كل شيء يخصك".

– "عن أي شيء تتحدث؟"

– "كل شيء. قصة حياتك، أفكارك، علاقاتك، وما تحب وما تكره، كل شيء مع شرح مفصل".

– "هذا ثمن باهظ، سيد أحمد. أتظنني أقدم مثل هذه المعلومات والأسرار لأي شخص؟"

– "لست أي شخص، أنا صديقك الآن".

– "حسنًا، لا بأس. على كلٍّ، لم يبقَ شيء يستحق الكتمان. هيا، قل ما لديك".

– "فليكن. كتابك يهدف إلى إصلاح شيء ما. تحاول أن ترمم فيه ثغرات اجتماعية واسعة القطر. وأنت مدرك أنك لا تستطيع، فتصلح نفسك. تلك الحيوانات التي كانت تعيش مع الرجل لم تكن حيوانات حقيقية، بل شخصيات في مجتمعه. مثلًا، الكلب الذي يدعي الوفاء لم يكن سوى صديق ماكر ذي مصلحة. أما الأفعى ذات الجلد الناعم والأنياب السامة، فكانت فتاة لعوبة تخفي شر أفعالها وراء قناع الأنوثة واللين والحنان. والمخلوقات المفترسة لم تكن وحوشًا فعلًا، بل جيران وأقارب يحسدونه ويتكلمون في غيابه عنه بسوء، ويكرهونه كرها شديدًا، ويرتدون قناع المحبة أمامه..."

– "لماذا توقفت هنا؟ لازالت الذئاب، لم تخبرني من يكونون في مجتمع الرجل الإنسي!"

– "الذئاب... في الحقيقة، لقد وقع لي لبس بينهم وبين تلك المخلوقات المفترسة التي ذكرتها سابقًا. لم أفصح عن ماهيتهم. هل هم الذئاب أم ضباع أم نمور أم شيء آخر..."

– "لقد فشلت، سيد أحمد... هذا فوز ثانٍ لي، أليس كذلك؟!"

– "لماذا تصر دائمًا على جعل الأمور غامضة؟ إذن، أخبرني من تكون تلك الذئاب!"

– "الذئاب بكل بساطة هم الخصوم والأعداء. قد لا يكون كل خَصم عدوًّا، لكن في كلتا الحالتين عليك ألا تتركهم خلفك، احذر الغدر بهم. دعهم بجانبك، اسبقهم بخُطوة واحدة دائمًا. اجعل الأمور في حياتك مقاييس، تقيس بها كل شيء وكل خُطوة".

– "يا للحظ العاثر، كيف غفلت عن هذا! إنه أمر واضح وجليٌّ، لا أدري كيف وقعت في فخك هذا!"

– "لا عليك، لقد فهمت الجزء الأكبر من الكتاب. هذا جيد، سيد أحمد".

– "إذن، هل تخبرني الآن عن سبب هذا السجن؟ السبب الحقيقي".

– "لكن، أنت لم تقم بالتحدي كاملًا. لكن لا بأس. سأطلب منك شيئًا، وعندما تقوم به فسأخبرك حينها عن بعض الأشياء... لكن ليس حياتي العاطفية، فذلك لا يروق لي الحديث عنه مطلقًا".

– حسنًا، قل ما لديك... أنا أستمع إليك.

– اذهب إلى علي، قل له أن يأخذك إلى بعض أناس الحي الذي أسكن فيه ويغادر بعدها. حينها، اسألهم عن أريان كيف يبدو لهم، وكرر الأمر على آخرين إن شئت.

– حسنًا، متى أفعل هذا؟!

– متى شئت، إذا كان لديك فضول لتعرف من أنا حقًّا، أسرع، لديك أسبوع.

غادر الطبيب بعدها، ذهب إلى علي، لكني لم أفهم بعد لماذا يقوم بكل هذا من أجل معرفتي. بعض الأشخاص غرباء حقًّا، أنا نفسي لا أشعر بفضول تجاه أيٍّ كان، هل أصبحت شخصًا غريب الأطوار لهذه الدرجة؟ هم لا يهمون.

بعد أن وصل الطبيب إلى علي، أخذه إلى مجموعة من الشباب الذين يكبرونني سنًّا بكثير. لم تكن تجمع بيننا أي علاقة صداقة أو ما شابه، كل ما كان بيننا هو احترام، فأنا أحترم الجميع دون استثناء. وبعد أن جالسهم لدقائق معدودة، بدأ الحديث عني قائلًا:

– يا شباب، أين ذلك الفتى المدعو أريان؟ لم أره منذ مدة!!

– لقد سُجن قبل سنة من الآن، لماذا تسأل عنه؟

– لا لشيء، أنا أعرفه منذ زمن. إنه غريب نوعًا ما، كيف يبدو لكم أنتم يا شباب؟

– أريان مجرد مجنون ضعيف الشخصية، يدعي بأنه كاتب وشاعر مِصقع.

– لماذا؟ أهو ليس كذلك؟!!

– إنه فقط موهوم بأحلام اليقظة، يتفوه بسخافات لا معنى لها.

– أحقًّا هو كذلك؟!

– نعم، صدق أو لا تصدق، إنها الحقيقة.

– يا للأسف، كنت أظن أني سأقابل الكاتب أريان، صديقي القديم، بعد أن صدر أول كتاب له، لكن اكتشفت أنه شخص آخر.

انظروا، هل هذه صورة أريان أم أنني مخطئ؟

– نعم، فعلًا إنه هو، واسمه كذلك على غلاف الكتاب!!

– شباب، خسئتم، عليكم أن تقرأوا هذا الكتاب، إنه مفيد للغاية لأمثالكم، وكنصيحة فقط: توقفوا عن لبس الحق بالباطل. أريان الذي تتحدثون عنه كاتب، وسيصير من أشهر الكتاب عما قريب.

– كيف ذلك، إنه سجين الآن؟

– انتظروا، لم تروا شيئًا بعد، سيأتي الوقت المناسب، حينها ستعدلون رأيكم فيه، وتذكروا أن القمر يختفي ليالِيَ، لكنه يعود للسطوع في السماء من جديد.

لقد كرر هذا مرات عدة ليتأكد من رأي الناس حول أريان، لكن كانت إجابة أكثرهم كهؤلاء الشباب: فتًى مجنون، ضعيف الشخصية، متصنع القوة... بعدها بيوم عاد إليَّ.

– تفضل سيد أحمد، كيف كان استطلاعك؟ هل كل شيء على ما يرام؟

– لقد فعلت ما طلبت مني، وسألت عنك أناس حيّك.

– همم، كانت إجابتهم أني مجنون، وأني أسعى وراء الأوهام وما إلى ذلك، أليس كذلك؟

– كيف علمت هذا؟

– أعلم كل شيء مسبقًا، وأعلم رأيهم بي، هم يكرهونني.

– لكن هل هم أعداؤك أم ماذا؟ سبق وقلت لي إنه لا أعداء لك!!

– نعم، ليس لي أي أعداء، لكني عدو الكثير.

– لا يمكن أن يعتبروك عدوًا إن لم تكن آذيتهم بشيء من قبل.

– نعم، لقد فعلت، لقد سعيت من أجل حلمي، كنت مُصرًا غير يائس. اعتبروني عدوًا لأنني فعلت ما لم يستطيعوا فعله.

– كيف تعيش إذًا في وسط كهذا؟

– هم يرتدون الأقنعة، وأنا أدعي الغباء وأدعي أني أجهل ما يكنُّون لي من حقد، فأتجاهلهم جميعًا.

– منذ متى وعلاقتك بهم على هذه الحال، هل هم مع بعضهم أيضًا هكذا أم معك وحدك؟

– أتعلم شيئًا، سيد أحمد؟ لقد صرت عدوهم عندما أنشدت أمام الملأ قائلًا:

تراب وطني الذي عشت في الأيام والليالي

وطني الذي فيه نسجت أحلامي وفيه عقدت آمالي

ولما كبرت، عجبت كيف أنه لي لا يبالي.

ولما وعيت، أدركت أنه أنا من عليَّ أن أسعى وراء منالي.

قررت أنه لن توقفني عقبة، سواء كانت تلة أم جبالًا.

فمن قريتي عزمت وحملت رحالي،

فخارجها مشيت وشددت وصالي.

هي أرض الوطن الذي فيه سأتأمل.

وفي أيامي الكئيبة ذبلت بسمتي وانطفأ جمالي.

وبإيماني بربي وقدره لم تثنني ما في وطني من أهوال.

وفي سعيي لحلمي تحولت وكثر تَرحالي.

لم أكن ناقصًا، لكني بحثت عن اكتمال.

وفي سعيي أدركت أن الوطن ليس من رفض عليه إقبال،

بل من فيه من بشر ليسوا بأمثال.

لا تعجب من هذا، فمن احتل المناصب ليس بشرًا، بل أغوال.

لا تغرهم شهادات ولا أعمال.

ما أهمهم هو ما في جيوبك من أموال.

أم من أي نسل أنت من الأنسال؟

أما أنا فلم يكن التراجع يومًا احتمالًا،

ولا يجول في فكري أو خيالي.

لا يغرنك ما يخرج من أفواه الحاقدين عنك من أقوال،

فمعظمهم لا يجيد سوى الكلام وليس بيده أي أفعال.

وسمعت صوتًا من داخلي يقول: تقدم ولا تبال.

فلم أيأس وعزمت على تحقيق حلمي، وأعلنت على الله اتكالي،

فحتى لو طالت الليالي فسأقف في قمة حلمي ذاك في الأعالي.

– هل أنت من كتبت هذه الأبيات الشعرية حقًّا؟

– نعم، ما بها؟

– إنها رائعة يا رجل، في الحقيقة معهم حق في أن يحسدوك، فأنت تحفة يا أخي.

– لكل سعي نتيجة، سيد أحمد، شكرًا على إطرائك.

– إذًا، لقد فعلت ما قلت أن أقوم به، هل ستخبرني الآن؟

– أمم، لا مهرب من ذلك، أظن أنه حان الوقت، يا طبيبي.

– هيا، قل ما لديك، كلي آذان صاغية.

– أولًا، أريد أن أقول لك شيئًا، أو أن أشكرك على نشر كتابي. بسببك تحقق جزء من حلمي، ثانيًا أريدك أن تعلم أن كل الأشياء التي طلبتها منك ليست بدافع أن أضع أمامك عقبات أو أتهرب من إجابتك!!

– إذًا، لماذا طلبت مني كل تلك الأشياء؟!

– كان لدي سبب، وهو أن تدرك بعض الأشياء التي سوف أحدثك عنها، ولم تكن لتدركها لو لم تفعل ما طلبت منك. حتى نشر الكتاب ومحتواه الذي طلبت منك شرحه كان بدافع، فقد كان عليك إسقاط محتوى الكتاب على حياتي وقصتي لتفهم. لقد ارتكبت خطأً عندما تعاملت مع الكتاب على أنه مجرد كتاب للمتعة فقط أو للعبرة، إنه جزء من قصة حياة، سيد أحمد، ولقد تعرفت على بعض المخلوقات المفترسة، أليس كذلك؟

– ماذا!!! أناس الحي؟ أنت على حق في هذا، لقد غفلت عن بعض الأمور. فحينها علمت أنك ستخبرني في النهاية، لذلك توقفت عن توسيع نطاق تفكيري من حولي.

– لا عليك، صحيح أنك طبيب نفسي، لكني أنا أيضًا متلاعب نفسي بارع!

– لا أنكر هذا، لكني إلى الآن أود سماع القصة كاملة منك وبشكل صريح، بلا ألغاز أو غموض.

– بما أنك تود سماع القصة كاملة فسأبدأ معك من البداية. كما تعلم، سيد أحمد، أعيش في مدينة صغيرة. ترعرعت بين أزقتها، لم يكن هناك

شيء يميزني حينها، طفل عادي كأي طفل آخر، مستوًى دراسي متوسط، أسرة ميسورة الحال، كان كل شيء يسير على ما يرام إلى أن وقع شيء في حياتي... لحظة تحول تغير فيها كل شيء. كانت قصة صغيرة أحدثت في حياتي تغييرًا كبيرًا، حينها، يا سيد أحمد، ويومًا بعد يوم، أصبحت شخصًا مختلفًا. لا أدري كيف رسخت فيَّ هذه المبادئ التي بسببها أعيش أسيرَ قضباني.

– ما هي هذه القصة الصغيرة، يا أريان؟

– خذها مني هكذا ولا تسأل عن الأمر، إنه شخصي جدًّا.

– آسف... المهم، عن أي مبادئ تتحدث؟ هلا أوضحت أكثر؟! أنا أدوِّن كل ما تقول.

– تريث، سأحكي لك كل شيء... قد أصبحت أعيش على مبادئ عدة لا أخرج عنها، وهي سبب التعقيد الذي أعجزك عن فهم ماهيتي وأناي... ببساطة...

أحب الصدق وأكره المنافقين، أنا دومًا صادق...

أحب الوفاء وأكره الخيانة، لذلك أنا وفيٌّ دائمًا ولا أخون...

أحب الاهتمام وأكره التجاهل، لذلك حينما يتجاهلني من أهتم به... أرحل.

أحب القوة وأكره الضعف، لذلك أنا دومًا أبحث عن القوة من أجل حماية من أحب...

وأخيرًا، أحب أن أعيش الحياة ببساطة تامة حتى تصل إلى درجة التعقيد.

هذه هي مبادئي، سيد أحمد، في الحقيقة كنت أريد أن يكون العالم كله هكذا، حينها فقط سيعيش الجميع بسعادة.

– لم أكن أعلم أن هناك أشخاصًا يعيشون على هذا المنوال وهذه الاستقامة، سيد أريان. أقسم لك أنك شخص مثير للاهتمام حقًّا. أوتدري شيئًا؟ لقد أصبح لدي فضول أكثر لأعرف كيف تعيش بمبادئك هذه. لا تنزعج من فضولي هذا، فنحن أطباء النفس نميل دومًا إلى الأشخاص ذوي النفسيات الصعبة التي لا تُفهم بسهولة، ذلك يشكل تحديًا بالنسبة لنا، لكنني فشلت في هذا التحدي لأول مرة، وأظنها ستكون الأخيرة.

– إذًا ماذا؟ أتريد المزيد؟ على كلٍّ، هناك ساعات طويلة لنتحدث فيها، نملك من الوقت ما يكفي!!

– أجل، كذلك... واصل، أحب سماع هذا...

– بطريقة ما، يا سيد أحمد، لا أحب المنافقين حتى لو كانوا لا ينافقونني أنا وينافقون أشخاصًا لا يمتون لي بأي صلة. ما معنى أن أبتسم في وجه شخص أكنُّ له في قلبي حقدًا كبيرًا؟

– لكن تقول بأنك تكرههم، وفي المقابل تعاملهم باحترام وما إلى ذلك، ألا يشكل هذا تناقضًا في كلامك؟

– كان عليك أن تقوم بتأويل أقوالي، فعندما قلت أكرههم، لا يعني أني أقصد الكلمة بمعناها المعتاد، بل قصدت أني لا أحبهم فقط.

– كيف؟ لا زال الأمر يبدو لي غريبًا نوعًا ما!

– ببساطة، ليس لدي الوقت لأزيف مشاعري وأخفي مشاعري الحقيقية تجاههم. قلبي ممتلئ تمامًا عن آخره.

– بصراحة، هذا المبدأ لديك يا صاح، لا يبدو لي منطقيًّا. لماذا لا تحب شخصًا ينافق غيرك؟

– إنهم مجرد أقنعة تسقط... من يدري؟ ربما ذلك الوجه الذي أمامك ليس سوى قناع، وعندما تغيب ينهش عرضك ويفشي أسرارك. إلى حد ما، المنافق لا يمكن أن أثق به مهما كانت الظروف.

– همم...

– هل سبق وشهدت شيئًا كهذا، سيد أريان؟

– نعم، شخص كنت أظنه صديقًا، ليتضح بعد ذلك بأنه يتكلم وراء ظهري بكلام عني، بل أكثر من ذلك، يتحدث عني بكلام ليس فيّ. ما هذا الهراء؟ لست مضطرًّا للتعامل معي إن كنت لا تحبني، يا هذا. إنها مجرد حياة لا تتوقف عند أحد. كن على طبيعتك، هل تنافق لأجل مصلحتك لهذه الدرجة؟ أنت ضعيف حتى تتخلى عن نفسك من أجل أن يحقق لك شخص آخر ما تريد. بالله عليكم، يا قوم، ما هذا التفكير السقيم؟ تالله إني لم أنافق أحدًا يومًا، وما قابلته ببسمة كاذبة. لست مضطرًّا لذلك... ثم إني إن كنت لا أحب أحدًا، فذلك لسبب ولسبب وجيه أيضًا. أنا أعجب من شخص يحقد عليك ليس لأنك آذيته ولا لأنك قلت فيه كلامًا سيئًا... قد يحقد عليك لأنك سعيد في حياتك حتى لو لم تكن كذلك. قد يحقد عليك لأجل عمل حتى لو لم تكن مرتاحًا فيه. تبًّا، قلوبهم مملوءة بالحقد والكراهية، سيحقد عليك لأتفه الأسباب.

هؤلاء في نظري هم المرضى النفسيون، لديهم ثغرات كثيرة لن يملأها شيء، ما دامت تلك القلوب داكنة السواد داخل صدورهم العفنة. تبًّا لهم ولحياتهم. كرسالة لهم جميعًا: "لست منكم يا مزيفين، ويسعدني هذا. أنا الصادق، أنا الوفي، وأنا الحقيقي. لا مكان للتصنع والأقنعة". أتدري معنى أن تكون صادقًا وسط مجتمع من المنافقين؟ إنه شعور غريب، ستشعر دومًا بالاغتراب وسطهم لأنك لا تنتمي إليهم، ولن تنتمي لهم أبدًا.

المبدأ الثاني: أكره المنافقين

اسمع، عليك أن تكون متأكدًا تمامًا أن كل الناس يقولون بأنهم يكرهون الخيانة، لكن عليك أن تعلم أكثر بأنهم يكذبون "جلّهم". فمن يكره الخيانة لا يخُن أبدًا، ولتنظر الآن لهذا العالم الكبير القذر، ألا يعج بهم؟! همم... في كل يوم أقابلهم، أحادثهم، أتعرف على ضحاياهم. لقد سبب لي هذا يومًا عقدة نفسية، استغرق الأمر وقتًا لحلها والخروج منها. كما قلت لك، هناك قلة قليلة فقط من يفون بالوعود ويصونون العهود، كما كان يقول شخص كبير في السن، كنت قد اعتدت زيارته بعد دوامي المدرسي:

في المرة الأولى:

خذلتني من أحببتها.

وفي المرة الثانية:

خذلنا الحظ، أنا ومن أحببتها.

وفي المرة الثالثة:

عذرًا، فإني وفيٌّ ولا أخون، ولعهد الحب أصون.

– أيعني هذا أنه تعرض للخيانة سابقًا؟!

– ربما... ما أعلمه هو أنه رجل عجوز وحيد تمامًا، بلا زوجة أو أبناء. لكني مررت بالكثير من القصص، وأعلم أنك كذلك أيضًا، سأحكي لك بعضًا منها.

أنا معروف بين أصدقائي بمهاراتي في استعمال الكلمات، سواء الغزلية منها أو الحوارات الدرامية... فجأةً، جاءني صديق لي –إنه أخ عليٍّ– يحدثني عن فتاة، أو أقول كاتبة مبتدئة، كانت تحب الاقتباسات الحزينة والمؤثرة. ومرت الأيام وعرفني بها. قرأت كلماتها ولمست فيها الكثير من الألم والمعاناة... ترددت قليلًا ثم سألتها:

– ما بكِ؟ ما سبب هذا الحزن؟

– لا، أنا فقط أحب أن أكتب أشياء كهذه... لا علاقة لها بي!

– تستطيعين قول هذا لشخص غيري، أما أنا فلا!!

– لا، هذا كل ما في الأمر... لا تقلق.

– لكني أرى دموعًا بين الكلمات، أرى أحزانًا معلقة تحت السطور، أستطيع التمييز بين الكلمات التي يكون مصدرها القلب الجريح! والكلمات التي يكون مصدرها العقل المبدع.

– وماذا ترى بكلماتي أنا؟

– للأسف، كلماتكِ تقول عكس ما تدعين، فلا تخفي حزنك.

وحدثتني قائلة:

– لقد أحببت شخصًا من قبل... عشت معه أيامًا سعيدة، ضحكنا معًا وحزنّا معًا. لقد كان يعدني بأنه سيتزوجني، كان يعدني بأن نعيش معًا للأبد، كان يقول بأنه يحبني ومستعد للتضحية من أجلي... ثم رحل وكأن شيئًا لم يكن، وكأنه لم يحادثني يومًا أو يعرفني. كسر قلبي بكلماته الأخيرة، لم

أتوقع أن يفعل بي هذا... لقد ترك لي جرحًا ليس كأي جرح، لن يشفيه أي دواء...

لقد أثَّر فيَّ كلامها حقًّا، سيد أحمد. تلك الفتاة المسكينة لم تكن تستحق كل هذا، أليس كذلك؟ لقد حادثتها قبل أن أفاتحها هذا الموضوع، كانت فتاة تحب الحياة، فتاة سعيدة... لكن بعد أن مر عليها كالوباء، أصبحت عبارة عن مومياء جافة تمامًا.

وعليك أن تعلم أنه عندما ترفض أن تكون قذرًا مثلهم، فسينعتونك بالمجنون والضعيف.

– بالفعل، إنه قاسٍ جدًّا... لقد مر على يدي العديد من مثل هذه الحالات، فقد تدمرت نفسياتهم تمامًا. والبعض اكتأب، والبعض الآخر جُن!

– آه، آه، لقد تألمت أنا أيضًا حينها، لأن الذي آذى تلك الفتاة المسكينة كنت أعرفه جيدًا... ومن يومها تدنت مكانته في عيني، أصبح عديم القيمة تمامًا.

ولما غلبني الأسف والحزن على تلك الفتاة، دخلت غرفتي وأخرجت قلمي لأتخلص من ألمي، وبدأت أكتب:

هل نحن أحياء؟

بالكاد أصبحنا نعلم أننا أحياء، لم نعد نعلم ما نريد من هذه الحياة أو إلامَ نسعى، كأنه أُنزل ستار من وهْم جعل كل شيء غامضًا في طريقنا. ولا عجب في ذلك، فإنه بالفعل ذواتنا تعيش وهمًا لا يزول أبدًا...

يمر الوقت سريعًا وبطيئًا حتى أدركنا السراب، ونحن حتى لا نعلم من نكون.

ما باللكِ يا حياة؟ ألم تسأمي مثلنا؟

لمَ تجعلينا نقاسي ونتألم دومًا؟

يا حياة، نحن نلقي عليكِ اللوم،

ونعلم أن العيب فينا وليس فيكِ.

نحن الذين لم نلقَ أمنًا أو سلامًا في هذه الأرض!

يا قلوب ويا خواطر، عن سلامك أتحدث.

لقد افتقدناك يا سلام، ولم نشعر بك منذ زمن طويل.

وهناك الكثير من الصادقين الذين قست عليهم القلوب وهم الآن يعانون...

سُلبوا من نور وجوههم بسبب قلوبهم التي أحبت بصدق!

أحزنني أن أرى أشخاصًا كهؤلاء، لم يرتكبوا أي ذنب سوى أن قلوبهم خرجت عن طاعتهم ونبضت لمن لا يستحق.

ربما كلامي جعلني أشعر مثلهم.

صدق من قال إن الذي يعطي قلبه، يعطي روحه أيضًا.

فما أسوأ أن تُسلب روحك وأنت حي. بكوا وحزنوا واكتأبوا... لكن من يهتم؟ متى يراودهم النسيان... من يدري؟

لقد استحقوا أن تحبهم قلوب من ذهب، لكنهم صادفوا قلوبًا من حجارة. هناك الكثير من الضحايا الذين سقطوا في هذه اللعبة الخبيثة. لا زال كلام أحد الحشرات يجول في رأسي إلى الآن. منذ قرابة سنة ونصف، كنت قد خرجت مع أخي إلى أحد المقاهي تلبية لرغبته في لقاء أحد أصدقائه هناك... بعد انتظار دام ربع ساعة، أتى صديقه. بصراحة، من

النظرة الأولى شعرت بشيء غريب تجاهه، لم أشعر معه بالارتياح أبدًا... تبادلا أطراف الحديث لبعض الوقت.

وإذا به يخرج بموضوع الفتيات قائلًا:

- أتعلم؟ بالأمس، لقد التقيت بالفتاة التي أحدثك عنها!

- أيهن؟ فأنت تحدثني عن الكثير، ليست واحدة فقط.

- تلك يا صاح، التي أريتك صورتها وهي عارية تمامًا!!

هنا توقف بي الزمن للحظة، بدأ دمي يغلي... ليكمل الملام بعدها:

- التقيت تلك، وماذا حدث بعدها؟ هل حدث بينكما شيء!؟

- لقد مارست معها، يا رجل، ماذا تعرف عني؟ هههه.

- أحقًّا ما تقول؟؟

- نعم، والأكثر من هذا هو أني بعد أن وصلت للمنزل، اتصلت بها وأخبرتها أن علاقتنا انتهت وانتهت بالنواح. هههه.

- لماذا فعلت هذا؟ ألم تكن تعجبك وتعدها بالزواج؟

– لا، كنت أكذب عليها فقط، وبعد أن حصلت على ما أريد منها، انتهى كل شيء. ثم إنه في حياتي العشرات من أمثالها.

– ما كان عليك فعل هذا!!

– أتحدثني بهذه اللهجة للتظاهر بالطيبة أمام أخيك؟ هل نسيت ما تفعل أنت؟

هنا، وللحظة، شعرت بأن العالم ينهار من حولي. ذلك الكلام لم أستطع استيعابه إلى الآن. كيف يمكن لشخص أن يكون بهذا الشر؟ لقد شعرت برغبة عارمة في أن أبرحه ضربًا، وكل ما كانت تراه عيناي هو أن أجعل وجهه القذر ذاك كيس ملاكمة، لكني اكتفيت بالصمت إلى أن سألني:

– أريان، كم فتاة جامعتَ أنت؟ شخص بوسامتك وجاذبيتك... لا بد أن يكون قد خدع الكثير من الفتيات، أليس كذلك؟!

حينها أتاحوا لي الفرصة للكلام، منحوني فرصة لكي أعاتبه على قذارة أفعاله:

– أتظنني قذرًا مثلك، أيها الوغد اللعين؟

– ماذا قلت؟ أنا فقط سألتك، لمَ ردة الفعل هذه؟!

– بصراحة، ردة فعلي هذه لا شيء. احمد ربك أني تريثت قليلًا، وإلا كنت الآن مدرجًا بدمائك.

– لمَ تحدثني هكذا؟ ماذا فعلت؟ هل أسأت لك بشيء دون قصد!؟

– أسأت... أسأت كثيرًا للرجولة برمتها. أتعلم شيئًا؟ أنا أشمئز من أمثالك، خائن وضيع. أليس لك ذرة ضمير؟ ألهذا المستوى من القسوة وصلتم... ألم تفكر للحظة بما سيحل بالفتاة المسكينة التي أخذتَ شرفها؟ ماذا سيحل بها؟؟!

– لا تبالغ، لقد استمتعنا معًا... كان عليها أن تعلم أن العلاقة عابرة فقط، ولو لم تكن تريد ذلك أيضًا لما وافقت!

– أتساءل كم كذبة كذبتها لتشق بك؟ وكم من فتاة قد فعلت معها مثل ما فعلته مع هذه الفتاة المسكينة؟ أي مستوًى من الانحطاط ستبلغ بعد! تعصي الله وتؤذي خلقه. لكن أبشرك بشيء، أقسم لك أنك ستعيش الجحيم في دنياك قبل آخرتك. ستُعاقَب على كل دمعة نزلت من عين فتاة وثقت بك، ستُحاسَب على كل انقباضةِ قلب... فكِّر ببشاعة ما تفعل!!

– تحدثني بهذا وكأنك ملاك طاهر لا يخطئ، لا بد أنك فعلت هذا أيضًا مع أكثر من واحدة، لا تخفِ بشاعتك وراء هذا الكلام.

– صدقني إن قلت لك أني لم أقترب من فتاة من قبل... ليس ضعفًا ولا عدم قدرة، لكنني أخشى ربي، ائتمنني على أنثى وأوصاني رسوله بها، لكنَّ قذرًا من أمثالك لن يفهم هذا الكلام أبدًا.

طأطأ رأسه بعد سماعه كلماتي الأخيرة... ثم نهضت مغادرًا بعد أن دفعت ثمن مشروبات لم أشربها حتى.

أعلم، سيد أحمد، أنك تعلم الكثير من مثل هذه القصص، لكنني أخبرك بما مر بي من مواقف فقط... أرجو ألا يزعجك هذا.

– لا، واصل، واصل. أحب الإصغاء إليك... تعبت من كوني المتكلم والآخرين مصغين، أريد أن أصغي هذه المرة، المرة فقط، لعلها تكون نقطة تغيير.

– حسنًا... تحدثت عن خيانة الرجال كثيرًا، هذا لا يعني أن الرجل هو الطرف الأكثر خيانة في العلاقات. المرأة باتت أكثر بكثير من الرجال تزاول هذه الصفة الذميمة. لكن يُقال لكل قاعدة استثناء، هناك طبعًا

رجال ونساء أوفياء، لكنهم قلة قليلة فقط. سأمر على قصة المرأة بشكل عام.

المرأة التي أصبحت تبيع نفسها بثمن باهظ، ظنًّا منها أنها غالية... نسيت أن كل الأشياء التي لها ثمن وتُباع، فهي رخيصة. لست أتحدث عن العاهرات، فقد رُفع عنهن القلم مسبقًا، لكني أتحدث عمن تترك رجلًا فقيرًا أحبها، وتذهب إلى رجل غني سيذلها. المرأة التي باتت تبحث عن المساواة، وهي غير مدركة أن هذه المساواة التي تلاحقها، هي تقليل من شأنها. المرأة التي أصبحت تعرض مفاتنها للملأ تحت مسمى الحرية الشخصية والموضة، اسمحي لي، يا آنستي، أن أصفق لك وأخبرك بأنك أكبر ضحية في هذه اللعبة الخبيثة.

عفوًا، أطلت الحديث كثيرًا، ولم أبدأ بعد في سرد قصة خيانة المرأة!

في زمن ما، ومكان ما، كان هنالك شاب أحب فتاة بجنون. كانت أول حب له منذ أن كان طفلًا، ركض خلفها في أزقة المدينة منذ نعومة أظافرهما. وبعد أن كبر ووعى بحبه لها، صارحها بما يكنه قلبه لها. أخبرها بأنه يحبها، فأجابته بأنها تحبه كذلك، وكانت تنتظر اليوم الذي يعترف لها فيه. وقد جاء اليوم أخيرًا، وهي مسرورة للغاية لسماعها لهذه الكلمة منه، فأجابها هو:

– أحقًّا هذا؟ وأنا كنت خائفًا كل هذه المدة من أن ترفضيني أو يكون قلبك معلقًا بشخص آخر؟

– لا، فمنذ طفولتنا وقلبي معلق بك وحدك.

– كيف... لا يمكنني أن أصدق، أنا حقًّا سعيد جدًّا...

– وأنا كذلك... لقد تأخرت كثيرًا في قولها، لكن لا بأس.

– آسف لأني جعلتكِ تنتظرين كثيرًا.

وبعد هذا الحديث، وقعت أحداث كثيرة أخرى: لقاءات، وأحضان، وقبلات، وكذلك وعود... وعود أنه لن يترك أحدهما الآخر إلى الأبد. كان الفتى يعمل بجد من أجل أن يذهب إلى منزل والدها، ويرفع رأسها، ويجعلها تفخر به. كما أنها كانت تسانده، وتخبره بأنها ستبقى إلى جانبه إلى الأبد، وألا يقلق حيال شيء ما دامت بجانبه.

وفي يوم ما، بعد أن اعتادا الحديث إلى بعضهما في كل لحظة، انقطع منها كل شيء؛ لا لقاءات، ولا مكالمات، ولا رسائل واردة منها. اتصل بها مرارًا ليسأل عما إذا كانت تعاني من مشكلة ما، أو تكون مريضة أو ما شابه، لكن دون جدوى. مر أسبوعان، كان يقف كل يوم فيهما تحت

شرفة منزلها ليراها... لكن لا أحد يطل عليه. بعد يومين، اتصلت به في منتصف الليل، فركض نحو الهاتف بسرعة وكأنه في صحراء ورأى واحة.

– لُبنى، أهذه أنتِ؟ كيف حالكِ؟ لقد قلقت عليكِ كثيرًا، لمَ لم تردي على رسائلي كل هذه المدة؟ هل أنتِ مريضة؟ لقد اتصلت بكِ كثيرًا من دون جدوى.

– زيد، هناك ما أريد أن أخبرك إياه.

– خيرًا، ما هو؟

– زيد، أنا آسفة، هنا ستتوقف رحلتنا. لا مستقبل لنا معًا.

– ماذا تقولين؟ لبنى، هل أنتِ جادة!!؟

– أنا جادة، لقد خُطبت وسأتزوج بعد أيام. لم أرد أن تسمع الخبر من شخص آخر.

– أرجوكِ، أخبريني أنكِ تمزحين فقط....!!!

– أنا لا أمزح، وداعًا.

– لكن لقد وعدتِني أننا سنبقى معًا إلى الأبد. أين وعدكِ؟ لبنى، أجيبي!

– لا تزال الطريق أمامك طويلةً، وأنا غير مستعدة للانتظار لبقية حياتي من أجل حبك هذا. هذا الرجل الذي سأتزوجه ثري جدًّا، وسأكون معه أكثر سعادة. ألا تريد أن أكون سعيدة؟

– لقد وعدتِني بأنكِ ستنتظرينني، لقد وعدتِ بأن تكوني سندًا لي.

– زيد، أرجوك، انسَ كل شيء. علاقتنا هنا انتهت، لم يعد يجمعنا شيء بعد الآن. أنا الآن امرأة متزوجة.

– هل أنسى بعد أن جعلتِني أحمل في رأسي أطنانًا من ذكرياتنا معًا؟ هل أنسى بعد أن وعدتِني مئات المرات بأنكِ ستبقين معي إلى الأبد؟ أنتِ خائنة... خائنة كاذبة. أهذه وعودكِ؟ أهذه أيامنا؟ هل هذا هو حبكِ الذي لا ينتهي كما أخبرتِني عنه؟ أي قلب تملكين؟

– زيد، وداعًا، وانسَ كل شيء حدث بيننا، وانسَ أننا عرفنا بعضنا يومًا.

ثم أقفلَت الخط بعد كلماتها هذه، وانهار زيد محطّمًا. لم يكن ما حدث معه أمرًا سهلًا؛ فبعد أن أوهمته بالحب وجعلته يتعلق بها إلى أقصى الحدود، رحلت وتركته يعاني دون أن تفكر فيما قد يحدث له. أتعلم شيئًا آخر؟ لقد أتته دعوة زفافها أيضًا، وحضر زفافها، ورآها تفعل ما كانت تعده بأنها لن تفعله مع غيره، لكنه ظل مصدومًا ينظر إلى بشاعة المنظر دون ردة فعل تذكر.

ومنذ ذلك اليوم، ضل الفتى الصالح عن الطريق، وأصبح يهدر أمواله على النوادي الليلية والخمر والعاهرات. يظن أنه ينتقم منها، لكن للأسف لم يكن يؤذيها بشيء، بل كان يؤذي نفسه فقط.

– سيد أريان، تتحدث وكأنك تعرف القصة جيدًا بكل تفاصيلها!!؟

– هذه القصة وقعت مع طالب كان يدرس معي في نفس الفصل، والآن قد ترك كل شيء خلفه، واتبع طريق الضلال.

حاولت نصحه في الكثير من لقاءاتنا، لكن يبدو أن الصدمة كانت أكثر من أن يتم تحملها. في كل مرة كنت أحادثه فيها، كان يقول لي:

"نحن لا نفتقر للسعادة، بل نفتقر للأشياء التي تجعلنا سعداء!!"

– يا للأسف، صراحة، بالرغم من أني لا أعرف هذا الشخص، إلا أنني شعرت بالأسى عليه حقًّا.

– خيانة المرأة، سيد أحمد، أشد بكثير من خيانة الرجل. فالمرأة قد يتحطم قلبها وتتعافى في سنة... سنة كأطول مدة كافية لتنسى كل شيء. لكن الرجل عندما يحب بصدق، لا ينسى إلا عندما يصبح تحت التراب. فما أسوأ أن تعيش مع شخص وقلبك ينبض لشخص آخر. كتوضيح فقط؛ نحن لا نلوم من يترك شخصًا من أجل الذهاب إلى شخص يحبه، فكل البشر أنانيون، نميل لمن نحب، لكن على الأقل عندما لا تحب شخصًا، فقط اتركه قبل أن يتعلق بك ولا توهمه بالحب.

أنتم لا تدرون كم مشيت، وأين مشيت، وكم من شيء رأيت، وبأي شعور أحسست. أنتم لا تدرون بما مررت، لدرجة ما عدت بعدها تألمت.

ما الحياة بدون حب؟!

وما الحب بدون ألم؟!

وما الألم بدون خيبة؟!

وما الخيبة بدون مخيب؟!

وما المخيب بدون كذب؟!

يجرحون ولا يبالون. ألا يعلمون أن لنا قلوبًا تشعر، وليست حجارة صماء؟

إن لم تكن قادرًا على البقاء، فلا تعهد به.

إنه لشعور مؤلم جدًّا... لن يعلمه إلا من ذاق ألم الفراق.

فأوفوا بوعودكم، أو لا تعهدوا أبدًا.

– لا تؤاخذني على المقاطعة، سيد أريان، لكن هذه الأمور باتت منتشرة بشكل كبير، ولا مهرب منها. أصبحت أمورًا عادية، لا يجب على هذا أن يؤثر على نفسيتنا، أوليس كذلك؟!

– هناك فرق كبير في تفكيرنا، فكل منا ينظر للأمر من وجهة نظره الخاصة.

– أنا أوافقك الرأي في أن هذه الأشياء فظيعة لا يجب أن تكون، لكن ما باليد حيلة.

– هذا موضوع طويل آخر للنقاش فيه، لكني لن أخوض فيه، سيد أحمد.

– حسنًا، لا بأس. أظن أنه لا يزال هناك مبدآن، صحيح؟

– تعدُّها أيضًا، يا دكتور؟

– بالتأكيد، فقد تعبت كثيرًا من أجل سماع هذا. لا يجب أن ننسى شيئًا.

– إذًا لنواصل...

"أحب الاهتمام"

المبدأ الثالث

هذا مبدأ مشترك بين معظم الناس، على ما أظن. لكن سأتحدث عنه قليلًا، سيد أحمد، وكما تعلم، الاهتمام هو أساس كل العلاقات مهما كانت!

– نعم، هذا بديهي، فنحن البشر نحب أن يهتم بنا الآخرون.

– وإن يكن، ما يشغل تفكيري في هذه القضية هي الشبكة المعقدة من العلاقات التي يهتم بها الإنسان.

– ماذا تقصد؟!

– أقصد أنه مهما حاولت الاهتمام بالآخرين، فستفشل في محاولة إرضاء الجميع. فإما أن تهتم بالبعض، ويتأذى الآخرون الذين يبتغون اهتمامك من تجاهلك لهم، أو تهتم بالكل، فتؤذي نفسك، هذا إن استطعت ذلك.

– بصراحة، لم أفكر في هذا يومًا!!

– لست وحدك، فلا أحد يهتم بهذا الموضوع. فنحن في عالم من الأنانيين... يحبون تلقي الاهتمام، وهم لا يهتمون لأحد. لا أقصد الإهانة، لكن هذا ما يحدث.

– إذن كحل لهذه المشكلة، ماذا تقترح؟

– الحل بسيط جدًّا، فقط اهتم بمن يهتم بك، اهتم بمن يحبك ويخشى عليك، فهذا هو الشخص الوحيد الذي يستحق أن تهتم به بنفس القدر.

والحل الثاني، اهتم بنفسك فقط، واترك الناس وأحاسيسهم جانبًا، فهم لا يعلمون بما تمر أو مما تعاني.

– لقد أشرت، يا سيد أريان، إلى أنك تحب الاهتمام، أليس كذلك؟

– نعم، لكني نسيت إضافة كلمة "كنت". أما الآن، فأنا من النوع الذي يختار الحل الثاني، أحب نفسي وأهتم لنفسي، حتى أعيش، كما ترى، أعيش مع نفسي فقط.

– هذه نرجسية. عندما يبالغ المرء في تقديس نفسه، قد يفقد الاهتمام بالآخرين.

– يختلف الأمر بالنسبة لي. لقد بالغت في الاهتمام كثيرًا، وفي المقابل لم ألقَ شيئًا مما أعطيت، فاختفى اهتمامي وجفت مشاعري شيئًا فشيئًا... لا بأس.

– هل قلت شيئًا؟!

– لا، لا شيء، مجرد شعور عابر لا أكثر!

– من خلال حديثي إليك، سيد أريان، لاحظت أنك تدقق في كل التفاصيل مهما كانت صغيرة. في بعض الأحيان، عليك التغاضي عن الكثير من الأشياء التي تزعج عقلك بشدة!

– ليس بيدي، فأنا لا أهتم بالتفاصيل، بل أغرق فيها رغمًا عني. لا أعلم كيف، لكن كل شيء أمام عيني يبدو وكأنه يمر ببطء شديد، يمكنني من رؤية كل شيء من حولي. كعيبٍ فيَّ، أنا دقيق الملاحظة، لكني قليل الكلام والاهتمام. كنصيحة، يا دكتور، عندما تخسر اهتمام شخص تحبه وتهمه، لا تتردد وارحل!

المبدأ الرابع

"أحب القوة"

– كما خُيِّر الإنسان في أن يختار الخير والشر، كذلك هو مخيَّر في اختيار القوة والضعف... لقد كنت دائم البحث عن القوة، وكنت أمقت الضعف. هذا ما جعلني أبدو عنيفًا في بعض الأحيان، لكني لست كذلك. أحب القوة، لكني أكره الظلم. أمقت الضعف، لكني أحب الضعفاء. أنا أومن بأن القوة في الأيدي الخطأ لن تأتي بشيء غير العدوان. أما عن القوة التي أبحث عنها، فهي تلك القوة التي تجعلني كفؤًا لأكون سندًا لضعيف ما

استند إلى كتفي، لأقدر على حماية أشياء أعدها مقدسة بالنسبة لي. لكي تعلم، أنا أفضل الموت وأنا أحاول حماية ما أحب على الوقوف، أنظر إليه يضيع مني بسبب ضعفي!

– الكل يبحث عن القوة، ليس فقط أنت!!

– ليس الكل يبحث، بل الكل يريد، لكن القليل من يسعى إليها!

– منطقيًّا، اللجوء إلى القوة من أجل الحفاظ على الأشياء الثمينة بالنسبة لنا يبدو تصرفًا همجيًا نوعًا ما وغير متحضر؟!

– في بعض الأحيان، سيد أحمد، لن يستطيع حمايتك القانون أو ما شابه. لذلك، كن لنفسك ولغيرك القوة والسند. هذا ما أومن به أنا.

– قد لا نتفق في العديد من الأمور، سيد أريان.

– إن اتفقت معي في شيئين، فقد حققت إنجازًا. فغالبًا، أنا لا أتفق مع أحد لأني مختلف نوعًا ما!

هذه آخر مبادئي، سيد أحمد. أظن أنه وبهذا قد وفيت بوعدي لك، وعرفتك عليَّ أكثر من اللازم.

– مع كل هذا، سيد أريان، لا أدري لماذا أشعر ببعض الغموض اتجاهك؟!

– أي غموض تقصد؟

– هذه المبادئ التي تؤسس عليها حياتك، كان لا بد من وجود شيء أدى إلى بنائها داخلك. فمثل هذه الأشياء لا تأتي عبثًا، حسب علمي، يا سيد أريان!

– إذا، ما هو افتراضك لهذا؟!

– علاقتك العاطفية التي لم تخبرني عنها... أتمنى لو خصصتها لي!!

– لا تحاول، سيد أحمد، لن أفعل، اعذرني.

– فقط كنت أحاول الإشارة إلى أن هنالك نقصًا في المعلومات التي قدمت لي، وأنا أعلم مسبقًا رفضك.... لكنني حاولت. هههه، آسف.

– لا بأس، لا تهتم.

– إذًا، أظن أنها نهاية رحلتي معك، وأنه وقت الوداع، سيد أريان. تشرفت بمعرفتك. كان الحديث إليك ممتعًا، وكان حديثك مفيدًا جدًّا. لكن أريد أن أخبرك قبل ذهابي بشيء ما.

– ما هو؟

– أريد أن أقول لك بأن اعترافاتك هذه كلها كانت جزءًا من خدعي النفسية!

– لماذا؟!

– لقد شعرت بأنك تحاول حبس أفكارك داخلك، وكنت لأفشل في معرفة أسرارك بالطرق العادية، لذلك حاولت دفعك للاغترار بنفسك وجعلك تبدو شخصًا غامضًا مريبًا لتبوح بما تخفي في الأخير، وادعيت أيضًا الانهزام في هذه اللعبة!

– دكتور، يبدو أنه وإلى الآن لم تفهم شيئًا!!

– ما هو؟

– لم تفهم أنك كنت تخوض هذه اللعبة وحدك. فمن الأساس، أنا المنتصر فيها قبل أن تبدأ حتى، فكر جيدًا، وأعد حساباتك.

– حسنًا، لا يهم من منا الفائز. لن أزعج نفسي بالتفكير مجددًا، لكن أنت فعلًا شخص مميز ومثير للاهتمام. سعدت بالتعرف إليك كثيرًا. وبالمناسبة، كل الحديث الذي دار بيننا، ومبادئك التي حدثتني عنها... كل شيء قد دونته وسأعمل على جعلها كتابك الثاني.

– شكرًا، دكتور، أقدر لك هذا كثيرًا، لا تتعب نفسك.

– بالعكس، يشرفني هذا. لقد أحييت فيَّ النصف الميت بحديثك هذا! أتسمح لي بأن أضع لكتابك عنوانًا من اختياري؟

– هذا من دواعي سروري.

– إلى اللقاء، سيد أريان.

لقد انتهت مهمة الطبيب النفسي بعد أربعة أشهر من قدومه إليَّ. بعد أن ودعني، قصد والدَي للحديث إليهما عن حالتي.

– مرحبًا سيد جواد، أريد محادثتك بشأن أريان، فقد انتهت مهمتي معه!

– أفعلًا، سيد أحمد؟ كيف حاله... عساه خيرًا؟

– لا، لا تقلق، كل شيء على ما يرام. ابنك في الحقيقة قطعة نادرة، عليك أن تحافظ عليه جيدًا!

– ماذا تعني؟

– ما أقصد، أنه بالنظر إلى حالته المتوازنة، فالمرضى النفسيون هم الذين يتجولون الآن في الشوارع ويملؤون المقاهي. لابنك منظور فلسفي مميز، لا يملكه الكثير!

– إذًا، ماذا عن حريته؟؟

– هذا أمر لا أستطيع الجزم فيه، لأني لم أعلم منه شيئًا عن هذا الموضوع، لكن لا تقلق، كل شيء سيكون بخير عما قريب...

بعد مُضي أسبوع من آخر زيارة لسيد أحمد لي، طلبت لقاءه ثانية، فأتاني بعد يومين من ذلك.

– كيف حالك، سيد أريان؟ هل طلبت لقائي؟

– نعم، يا دكتور، بعد رحيلك علمت أن هناك شيئًا ما ناقصًا في كتابي ذاك الذي تود إصداره. كنت تنوي أن تسألني عنه، لكن يبدو أنك قد نسيت أمره تمامًا!

– ما هو؟

– إنه سبب دخولي هذا المكان، سبب سجني. ولأكون صريحًا أكثر؛ هذا كل شيء قد تبحث عنه فيَّ سيد أحمد!

– إذًا تفضل، قل ما لديك!

– فعلت هذا لأني تعبت... تعبت تمامًا من كل شيء، من أكاذيبهم، من نفاقهم، من خيانتهم. لم يعد هناك سبب واحد يجعلني أكمل حياتي معهم، فاعتزلتهم جميعًا دون سابق إنذار. يا زير النساء، فلتعلم أن عالمك وحياتك لا قيمة لها في قاموس مبادئي السامية التي عجز معظمهم عن تقليدها. ولتعلم، يا منافق، أن نفاقك تبخر في صدقي... لا أحد سيسمع كلامك بعد الآن!

لقد تخليت عن كل شيء وتركت لهم عالمهم وما يحمله من تفاصيل كئيبة. ما الذي تتوقع أن يفعله شخص، يا سيد أحمد، وُجِد في مجتمع لا يشبهه على الإطلاق، ملاك بين جيش من الشياطين؟ قد لا أكون ملاكًا صحيحًا، لكنهم بالتأكيد شياطين...

– اسمح لي أن أقاطعك بتدخلي، سيد أريان، لكن بحبس نفسك، لقد منحتهم الحرية لفعل ما يريدون وأكثر. لقد تركت أناسًا يحبونك... هناك والداك، علي، سعد، وسفيان، وأخوك... ماذا عنهم؟

– هم يفهمون الأمر، لا تقلق بشأنهم.

– فضول الكثير، لذا كل من قرأ تلك العبارة يتساءل عما يمكن أن يكتب سجين شاب. "وأول ما يتبادر إلى أذهانهم أنه في السجن، أي إنه شاب خارج عن القانون "مجرم" أو ما شابه... لكن أن يكتب كتابًا في سجنه، أمر مثير للاهتمام". ومن اهتم بالأمر يبحث عني ليجد أن لدي كتابًا آخر من داخل السجن. لقد ذاع صيت الكتابين في البلد كلها بعد حوالي أربعة أشهر من إصدار الكتاب الثاني، وأصبح اسمي مشهورًا بين القراء وأناس بلدي...

ثم أتى لزيارتي صديقي علي!

– كيف حال الصديق؟

– أوه، انظروا من أتى لزيارتي أخيرًا! لقد مر وقت طويل.

– بخير، وأنت؟

– اشتقت إليك يا رجل! لقد بات العالم الخارجي موحشًا بدونك.

– أحقًّا... لم أكن أدري. لمَ لم تزرني من قبل؟ لقد انتظرت زيارتك هذه طويلًا.

– ما كنت أفضل ذلك، كنت أخشى أن تسحبني إلى هنا أيضًا.

– لا تقلق، لن أفعل، فقد اعتدت هذا المكان بعد مدة قصيرة من دخولي إليه.

– المهم، ألم تصلك أي أخبار؟

– أي أخبار؟

– لقد أصبحت كاتبًا مشهورًا، يا صديقي، الكل بات يعرف اسمك "الكاتب أريان".

– هذا يروقني، صفة الكاتب مع اسمي تبدو جميلة حقًّا.

– نعم، هي كذلك. أتدري؟ لقد أثرت جدلًا واسعًا بكتبك تلك، الكل بات يتساءل كيف لسجين يعيش في قفص منعزل أن ينتقد العالم الخارجي ومن فيه من أشخاص؟

– إذًا قل لهم بأنه عاش خارج القفص ما يكفي ليكتب لما تبقى من سنين حياته. عشرون عامًا ومر عليّ ما مقداره ستون عامًا!

– لا زلت نفس الشخص لم تتغير أبدًا! هههههه

– لا زلت أحاول هدم بعض الأشياء داخلي، لكن دون جدوى، يا صديقي.

– أنت هكذا أفضل، لا تتغير. كن أريان، يليق بك أكثر مما يريدون جعلك عليه... تذكر، أنت الأفضل.

– وأنت كذلك، كلانا الأفضل، وستبقى الأصدق.

– نعم، بكل تأكيد.

– إذًا، كيف حالها؟

– من تقصد؟

– أقصدها، من غيرها؟!

– ألا تزال تهتم لأمرها بعد كل هذه المدة؟ سنتان، صحيح؟!

– أجل، لقد اكتملتا البارحة، واليوم هو اليوم الأول في السنة الثالثة. لا أهتم لأمرها، لكني أسأل فقط إذا كان لديك أي أخبار عنها.

– أنا آسف، أنا أيضًا لم ألتقها قط أو أسمع عنها شيئًا؟

– حسنًا، لا بأس.

– لكن أظن أنها قد تكون سمعت عنك الكثير، فالكل بات يسمع عنك.

– على كل، لا يهم. كيف هي أحوال دراستك؟

– بخير... بخير. أتعلم، هذه النافذة لديك تبدو جميلة، لمَ لا تفتحها؟

– تلك النافذة لم تُفتح منذ سنة ونصف.

– سأفتحها.

بعد فتح النافذة التي تطل على بعض الأشجار، أثار انتباهه عصفور صغير بألوان زاهية يغرد ويقفز من غصن لآخر. أنا أيضًا أحببت زقزقته كثيرًا، وفضول داخلي دعاني إلى أن أقترب نحو النافذة. لا أدري لماذا، لكن بدا لي وكأن ذلك العصفور يناديني، فقلت:

– أتعلم، يا علي، أتمنى لو أمكنني فهم ما يقوله هذا الطائر.

– هههه، ذكرتني، قيل إن هنالك أبحاثًا حول لغة الحيوانات، يمكنك أن تفهم ما يقوله الطائر يومًا ما، من يدري؟!

– هههههه، أضحكتني... يا له من هراء!

– لماذا؟ أنا أتحدث صدقًا.

– أعلم أنك تتحدث بصدق، لكن هل البشر الذين لم يفهموا صرخات الشهداء، ولم يروا دموع الأطفال الأبرياء، ولم تقشعر أبدانهم لرؤية كل تلك الدماء، قادرون على أن يفهموا لغة الحيوان؟ نادوا بحقوق الحيوان وأمام عيونهم حقوق الإنسان تُنهب... يا لها من مهزلة، إنه لأمر مخزٍ حقًّا. 8 مليارات نسمة، لكن إن بحثنا عن الإنسان، فسنجد مليارًا واحدًا لا غير. ليس كل بشري إنسانًا، الإنسانية صفة راقية ماتت في هذا العصر اللعين.

– لا تذكرني، يا صديقي، إنه أمر مؤلم حقًّا. فلنتجاوز هذا الموضوع. إذًا، متى؟

– متى ماذا؟

– متى يحين وقت الخروج من هنا؟ توقف ولا تحاول إقناعي بأنك تنوي البقاء هنا!

– كنت أعلم أنك تعلم ذلك، لكن لم يحن الوقت بعد!

– إذًا عليك أن تستعد جيدًا، فلا بد أن يزورك بعض الإعلاميين للتقرب أكثر من حياة الكاتب أريان، السجين العشريني!

– لا أنوي مقابلة أحدهم، كما تعلم، أسئلتهم كثيرة، وأنا لا أحب ذلك.

– إنه أمر محتم عليك، لا مفر يا صديقي، هذه حياة المشاهير!

– يبدو أن الشهرة ستسبب لي الكثير من المتاعب. كل ما أردته هو أن يكون العالم حقيقيًّا كما تعلم...

فلسفتي، فلسفة الحقيقي والمزيف

هذا أنا، خلقني ربي نسخة فريدة من نوعها، لا أشبه أحدًا ولا أتشبه بأحد. لا مكان للزيف والتصنع في حياتي، عاش الصدق وعاش الصادقون،

وتبًّا لأشباه الرجال المزيفين. لقد تعبنا، يا صديقي، من كل تلك النسج المشوهة. لا أعلم إلى الآن لماذا يواصل الناس في هذا العالم التشبه بأفكار ليست بأفكارهم، ومبادئ ليست مبادئهم، بل أكثر، حتى أحلامهم ليست لهم، بل أحلام المجتمع القذر المنحط الذي يعيشون فيه.

لا أعمم في حديثي ولا أقصد أحدًا، أنا فقط أتحدث، وإن كنت تملك هذه الصفات فأنا أحادثك. اجعل من نفسك شخصًا يستحق الحياة، فهذا العالم بات مليئًا بمن لا يستحقون الحياة، وحتى الموت لا يستحقونه. توقفوا عن قول "هذا عالم بائس"، فنحن لا نفتقر للسعادة، بل نفتقر للأشياء التي تجعلنا سعداء. والسعادة في بعض الأحيان قد تأتي على هيئة شخص، شخص ليس كغيره من الأشخاص. إذًا، كيف ومتى سنجد هذه السعادة، إذ أصبح العالم نسخة واحدة إلا قليلًا من الذين يعون وجودهم وضرورة انفرادهم بأفكار تميزهم.

– لكن صدقًا، يا أريان، هل لا زلت تفكر بجوري؟!

– في كل يوم أحاول أن أعيش بدون ذكرها، لكن عبثًا أحاول. لم أصل يومًا إلى ما أريد، لا زالت صورتها في ذهني وكأني التقيتها البارحة فقط!

– إنه لغريب جدًّا هذا الحب، للأسف لم أحظَ بفرصة لأقع في الحب.

– الحب قدر، وليس فرصًا يا علي، ستقع فيه عندما يُقدَّر لك ذلك.

بعد شهر من رفضي لزيارة كل الإعلاميين الذين أتوا لمعرفة أسرار حياتي، أتت فتاة ما. حاولت مرارًا لكني رفضت مقابلتها دون أن أراها حتى، إلى أن ظننت أنها يئست ولن تعود. لكن عادت وطلبت من أمي أن تخبرني بشيء لعله يغير رأيي!

– بني أريان، هناك فتاة تريد زيارتك... هل أسمح لها بالدخول؟

– هل هي نفس فتاة المرات السابقات؟ لا يا أمي، لا أرغب في مقابلة أحد. أخبريها بذلك، وألا تعود، فلن يغير معاودة مجيئها شيئًا من رأيي.

– لكنها قالت أن تخبرك بأنها شيماء، زميلتك في الدراسة التي درست معها الثانوية والجامعة؟

– أحقًّا هي نفسها؟ يبدو أنه ما باليد حيلة. على كلٍّ، أخبريها أن تأتي.

– حسنًا يا بني.

ذهبت والدتي في ذلك اليوم لأنها وجدتها قد رحلت، ثم عادت بعد يومين ومعها الفتاة.

– أهلًا، تفضلي شيماء، كيف حالك؟

– بخير، وأنت؟

– كما ترين، أنا هنا... لكني بخير، كل شيء على ما يرام.

– جيد، لكني منزعجة منك، أتعلم؟!

– لماذا؟

– لقد جئت لزيارتك، لكنك ترفض في كل مرة أتيت فيها.

– آسف لذلك، لكن مؤخرًا هناك العديد من الإعلاميين الذين يودون مقابلتي، ولكني لا أريد الإجابة عن شيء. وأنت كان عليك تعريف نفسك قبلًا، وإلا كيف لي أن أتعرف عليك؟

– كنت أود مفاجأتك، لكنك فاجأتني بغرورك، لم تكن هكذا يا رفيقي.

– لست مغرورًا، لكن الأمر وما فيه هو أني متعب ذهنيًّا، ولا أتحمل كثرة الأسئلة. إذًا، كيف حال أمور جامعتك؟

– لقد تركت الجامعة والتحقت بالمعهد الذي يتخرج منه الإعلاميون، وها أنا الآن إعلامية صغيرة أركض خلف المشاهير المغرورين أمثالك...

– لا زلت تقولين عني مغرور، أيتها الإعلامية الصغيرة.

– هههه، أمازحك فقط.

– لا عليك، أنا معتاد على طبعك هذا.

– لقد افتقدتك كثيرًا... والآن جئت لأغطي أخبارك، أرجوك امنحني الشرف لأن أكون أول من يأتي بأخبار عنك.

– بصراحة لا أعلم ماذا أقول لك!

– لا تقل شيئًا، أرجوك، هذا سيغير مسار حياتي. وافق... وافق، أرجوك.

– من يجرؤ على الرفض؟ لك ذلك، إذًا ماذا عليَّ أن أفعل؟ ليس معك كاميرا أو مذكرة.

– لم أتِ بشيء، لقد جئت اليوم فقط لأراك كصديقة الجامعة. بعد أسبوع سآتي بمعَداتي كاملة.

– حسنًا، فلنجرِ اللقاء في وقت آخر.

ذهبت في ذلك اليوم، وعادت بعد أسبوع. كنت قد استعددت جيدًا للقاء، وتأنقت ببذلة جذابة أتتني بها أمي.

– ما هذه الأناقة يا أريان، ثلاث سنوات مضت منذ آخر لقاء بالجامعة، لا زلت أنيقًا كالمعتاد.

– بالطبع سأكون كذلك. هيا يا حمقاء، جهزي معَداتك... قامت بإعداد الكاميرا. أما الخلفية، فكانت ستائري كافية لتعبر عن كآبة المكان. ثم بدأ التصوير.

– إذن سيد أريان، ما رأيك أن تحكي لنا قصتك وقصة تلك العبارة الشهيرة قبل كل شيء: "السجين العشريني"؟

– اسمحي لي، آنسة شيماء، لأني سأطيل الحديث، سأجيب عن سؤالك، وفي نفس الوقت ستكون رسالة لكل شخص يمشي الآن حرًّا بين أزقة مدينته.

– نعم، يسرنا هذا، سيد أريان، تفضل...

– هذا أنا السجين العشريني، أكتب إليكم من خلف قضباني. هذه كلمات كان عليَّ فَهم معناها قبل أن أدخل هذه الجدران الضيقة والعيشة المريرة، لكن... رغم كل هذا، لا زلت أفضِّل هذا المكان وأمقت الحرية التي يتمتع بها بعض الصراصير، أشباه الرجال، الحمقى ذوو العقول القاصرة. كل كلامهم كان منصبًّا على كلام الناس وآرائهم ووجهات نظرهم. يؤسفني أن أقول أن كل أفكاركم خاطئة، سواء كانت تجاهي، أو تجاه المجتمع، أو تجاه الحياة... كلها خاطئة.

ما يرعبني حقًّا هو فكرة أن كل السجناء قضيتهم بيد القاضي، أما أنا فكانت قضيتي بيد السجان والقضبان. الكل سيسأل عن سبب سجني، وأي جرم ارتكبت حتى أُعاقَب؟ لا ريب في أنني كنت الأسوأ على الإطلاق، كم سرًّا دفنت، وكم عهدًا به قد وفيت، وبين تفاصيل الحياة الكئيبة تراميت.

ولا بد أنني أيضًا في حبها قد تماديت، وها أنا حبيس القضبان. لأنني، مثلهم، أن أكون قد رفضت ومنهم ومن نفاقهم قد سخرت. اعذروني يا سادة، عجزت عن الوصف، فقد يئست من ثنايا عالمي هذا. أقسم لكم لم أكن مخطئًا يومًا في حق الإنسانية ومشاعرها، كنت دومًا مثال الشخص

المثالي في أعين رفاقي، إلى أن اعتزلت الجميع فجأة. إلى أن سُجنت بغتة، وقيل إن الكاتب قد أذنب وسُجن.

لم يعلم أحد سري أو ما حدث لي، ومن بعدها أصبحت في نظر الجميع ذلك الإنسان المعقد الذي يتفوه بالترهات طول يومه، دون أن ينصت إليه أحد. لكن في الحقيقة، الكثيرون أنصتوا، والقليل فهموا، وقلة منهم من طبقوا.

إذن يا من أسعدكم غيابي، كيف حالكم بدوني؟ هل لا زلتم تبتسمون أم تعالت ضحكاتكم؟ يا للسخف، يبدو أنه وإلى الآن لم يفهموا أن كل أحاديثي كانت لصالحهم. وككلمة أخيرة في رسالتي هذه؛ آسف على كل شيء ولا شيء.

أوقفت التصوير بعدها وهي مندهشة قائلة:

– ما هذا؟ لقد أصبحت في مستوًى آخر تمامًا يا أريان، يبدو أني لم أخطئ في مجيئي إليك، لقد قصدت حقًّا من يستحق أن يُنصَت إليه.

– شكرًا شيماء، فلندع المديح فيما بعد ولنكمل التصوير الآن.

– حسنًا، إذًا يا سيد أريان، ما الذي ترمي إليه بقول كلمة "سجن"؟

– كما ترين وكما لا يعلم الكثير، فأنا لست بسجين كما يظنون، ولم أكن يومًا كذلك. لم أكن حبيس القضبان الحديدية، بل سجين أفكار وذكريات، قفص قد عشت داخله سنة وسبعة أشهر، لقد عشت هذه المدة داخل غرفتي دون أن أخرج منها. حتى طعامي تضعه أمي أمام باب الغرفة!!

– ألا تظن أن هذا مبالغ فيه، سيد أريان؟ أعني هل هناك سبب دفعك لهذا؟!!

– نعم، رسالتي الأولى أجابت عن كل شيء. لقد وُجِدت في مجتمع خبيث لا يشبهني أبدًا، ويحاول سلبي أناي دائمًا، لذلك وضعتني في قفص ليس فيه سواي.

– هل هناك أمل أن تحرر نفسك ونراك في معرض الكتاب للسنة المقبلة؟!

– من يدري، قد أكون أو لا أكون كما يُقال!

– الجميع يتمنى رؤيتك، وأنا أيضًا أتمنى أن تشرفنا بحضورك، سيد أريان.

– شكرًا، قد أحاول، لكني لست بهذه الشهرة على ما أتوقع. هههه.

– إنه دافع الفضول، سيد أريان، قبل الشهرة. هناك أيضًا بعض المنتقدين يقولون: كيف أمكن لسجين عشريني أن يكتب وينتقد العالم الخارجي وهو يعيش بين أربعة جدران؟

– لقد ذكرني هذا بلقائي مؤخرًا مع صديق لي، وأخبرني أن بعضهم يتساءل نفس هذا السؤال، وإجابتي ستكون واحدة؛ أخبرهم بأنني عشت ما يكفي خارج هذه القضبان لأكتب لما تبقى من سنين حياتي، شاب عشريني حمل على أكتافه هموم عجوز ستيني!

– وسؤالي الأخير الذي سأنهي به لقاءنا، يا سيد أريان، وأتمنى من أعماق قلبي لو أحظى بإجابة منك عن سؤالي هذا.

– حسنًا، سأحاول. تفضلي؟

– في رسالتك هذه كانت هناك عبارة أثارت فضولي!! وما هي هذه العبارة؟ "ولا بد من أنني في حبها قد تماديت". ماذا نفهم من هذه العبارة؟ هل هناك فتاة في حياتك، سيد أريان؟

– كانت هناك فتاة ولم تعد موجودة!

– ما الذي تعنيه بـ "لم تعد موجودة"؟ هل انفصلتما؟

– لا أعلم حقًّا ما حدث!

– لقد ذكرتها في وسط كلامك، هذا يعني أنها لا تزال ببالك وذاكرتك! هذا موضوع يؤرقني كثيرًا.

– إذا كنت لا ترغب في الإجابة، لا بأس، أجبت عن الكثير، لا أنوي أن أزعجك أكثر من اللازم.

– لا... لا بأس، أعتقد أنه الوقت المناسب لأتخلص من هذه العقدة النفسية.

– إذًا لنكمل التصوير، هلا تفضلت؟ نحن متشوقون لسماع قصتك.

– لقد أحببت فتاة قبل تسع سنوات، حين كنت لا أزال صبيًّا صغيرًا. كانت فتاة جميلة جدًّا، كوردة حمراء في وسط حقل أخضر، وكغيمة في سماء فصل الربيع، حلوة كبراءة طفل رضيع. لقد وقعت في حبها من أول لقاء بيننا، من أول صدفة، لقد كان الأمر أشبه بالحلم. لم تكن صورتها تفارق ذهني، ولا صوتها يفارق ثنايا مسمعي، جاءت كفراشة لونت سمائي،

فبت ألاحقها كطفل يسعى خلف فراشة في وسط حديقة جميلة. لقد كان الأمر بالنسبة لي على هذا الشكل، بل وأكثر....

– هل كان هذا في لقائكما الأول؟ متى أصبحتما حبيبين؟

– لا نقول لقاء، فاللقاء يخطَّط له، بل نقول صدفة عابرة. بعد ما يزيد على الست سنوات، أخبرتها بحبي الكبير لها وأنني ما عدت أطيق حياتي في غيابها، جرت فيَّ مجرى دمي وصار غيابها هو كل ألمي!

– ماذا بعد، هل وافقت على علاقتكما أم أنها رفضت؟

– لا، لم يكن رفضها أمرًا واردًا، فقد كانت تحبني أيضًا، لكني علمت متأخرًا بحبها لي. وكيف ترفض وقد اعترفت لها بأولى كلماتي الشعرية... هل تودين سماعها؟!

– نعم، يسرنا ذلك، سيد أريان، هذا من فضلك.

– نعم، هيا بنا... لقد طلبت لقاءها في يوم ماطر، كان الجو جميلًا جدًّا... فلما التقينا دون أن تقول هي شيئًا ودون تحية مني أو مقدمات، بادرت قائلًا:

هـذه السـنوات السـت لم أعـد أنام لأرتاح، بـل أنام لألقـى فتـاة في أحلامي... رأيتها أول مرة.....

رأيتها ترقص على أنغام قطرات المطر في فصل الشتاء.

شعرها خيوط حرير سوداء.

ثغرها المتبسم كهلال واضح في السماء.

عندما رأيتها شعرت بالإغماء.

وكأن قلبي مسه ذلك الوباء

الذي فشل الكثيرون في أن يجدوا له الدواء.

لقد أصبح المرور والاستيقاظ دون المرور بحلمها كالبلاء،

لكني لا أنكر أن مجرد بسمتها شفاء،

إلا في حالة كان حبها هو الداء.

تفيدني بسمتك داء في داء.

لها وجه منير كقمر منير في ليلة ظلماء.

وعينان ساحرتان وكأنهما بحور واسعة سوداء.

باسمك لم أعد أستطيع التوقف عن النداء.

كثرة التفكير بك على ما يبدو ستقودني للفناء.

لياليّ بدونها ليالٍ بيضاء.

لا تعجبي من حبي، فمن أحبك لا يستطيع الاكتفاء.

وضممتها إلى صدري في عناق طويل،

وأنغام الكمان والناي تعزفها قطرات المطر.

– هذا صراحة سيكون صدمة للجميع، الكاتب أريان ليس فقط كاتبًا روائيًّا، بل وشاعر كذلك، رائع للغاية، ثم ماذا بعد؟

– لقد أمضينا ثلاث سنوات معًا، كان حبًّا صادقًا، كنت أريدها زوجة لي وأمًّا لأطفالي.....

– ثم ماذا حدث بعد ذلك؟ هل افترقتما لسبب ما؟

– الأمر أشبه بسراب كنت أعيشه غارقًا في حبها وهي كذلك، لكن لا أدري لماذا وفجأة انطفأ حبها لي أو ما شابه.

لم يكن شيئًا واضحًا. لا زلت إلى الآن أعاني بعض الغموض أو الكثير منه في الحقيقة. لقد انسحبت بغتة وتركتني مرميًّا في التساؤلات. أتألم؛ لقد عانيت مدة طويلة وتألمت كثيرًا. تلك الذكريات والوعود هي أحد أسباب سجني... الآن لا أستطيع أن أقول إنها مخطئة في الذي فعلته، فمن وجهة نظر، ما فعلته صحيح، لكن الطريقة التي تجاهلتني بها وأهملتني بها حتى أفقدتني الثقة بنفسي وجعلتني أبدو شخصًا عديم القيمة... لا يزال ذلك يحفر قبرًا في صدري إلى الآن.

أنا سجين قفص الذكريات. لم تأتِ عبثًا، فقد كانت هي أساس كل مبدأ فيّ، علمتني كثيرًا وجعلت من أريان: الكاتب أريان، سواء بالسعادة أو الألم. جعلت مني شخصًا يستحق الحياة بطريقة لم تدركها هي، أو ربما أنا من كان ينتظر الفرصة ليسمو بنفسه انطلاقًا من آلامه وأحزانه. سجين قفص الذكريات، ذكرياتها لا زالت تسجنني إلى الآن وتعذبني وتجلدني في كل ليلة. لن يكفي التعبير عن الألم بالكلمات، فقد كثرت المعاناة وهدمت ما بين أضلعي تلك الانتكاسات.

– إذًا سيد أريان، هل يمكن القول إن سبب كل هذا فتاة؟!!

– لا... ليست مجرد فتاة، وهي ليست السبب وراء كل هذا!!...

– إذًا، من وراء كل هذا، هل كان هناك شخص آخر؟!

– أجل... إنه "القاضي".

– عن أي قاضٍ تتحدث، وأنت قلت إنك لم تدخل السجن قط!!؟

– قاضٍ... في كل مكان... سأكتفي بهذا القدر.

– اعذرني، سأزعجك أكثر بأسئلتي. كسؤال أخير لك، سيد أريان، هل لا زلت تحب تلك الفتاة؟

– وهل يفتقد أحدهم القمر في واضح النهار؟!

– شكرًا على إجاباتك، سيد أريان. أظن أنه قد وصلنا إلى نهاية لقائنا بالسيد أريان، الذي نشكره جزيل الشكر لإعطائنا فرصة للتقرب أكثر من حياة كاتبنا الشهير.

– هذا من واجبي، آنسة شيماء... سررت بكم.

أوقفت التصوير، وبعد استراحة عشر دقائق، قالت:

– أريان، من تكون هذه الفتاة؟ لم تخبرني عنها يومًا.

– لم يكن هناك داعٍ للأمر.

– ماذا تقصد؟ لقد كنا صديقين مقربين ولم تخبرني عن حبيبتك من قبل، هذا غير معقول.

– آسف، لكني شخص كتوم متشدد في مثل هذه الأمور. لقد أجبت عن أسئلتك فقط لإرضائك لأنك صديقتي فقط، وما كنت لأفعل مع شخص آخر... فأنا لا أحب أن يتحدث أحد عما يخص علاقتي تلك.

– أنا آسفة، اعذرني، لقد انفعلت في وجهك، لكن الأمر أغضبني قليلًا.

– لا عليك... لا تهتمي. إذًا، هل هذه نهاية تغطيتك؟

– أجل، لقد كان هذا كل ما لدي. سأذهب الآن، أراك فيما بعد، سأعاود زيارتك يومًا ما.

– إلى اللقاء، سيسرني ذلك. أعلم أني أكثرت أسئلتي اليوم، لكن هذا الأمر يزعجني.

– لا بأس، اسألي ما هو هذا الأمر؟

– إلى متى تنوي الاختفاء خلف هذه الجدران؟ العالم يحتاجك في الخارج، صدقني.

– لا أدري إلى متى، لكن يومًا ما سيأتي الوقت المناسب.

– حسنًا، إلى اللقاء. أتمنى أن نلتقي في مكان آخر في المرة المقبلة.

لقد غادرت شيماء الرفيقة الطيبة وانتهى معها يوم مليء بالذكريات، بعضها سعيد والآخر حزين. لقد جعلتني أعود للوراء سنوات كثيرة... للحظة فقط، علمت أن تذكر الأشياء بإرادتك ومحاولتك ذلك ليس بسوء تدفق الذكريات الخارجة عن السيطرة الذي عانيت منه كثيرًا وبشكل يومي. بعد أسبوع، انتشر ذلك المقطع في جميع مِنصات التواصل الاجتماعي وصور في الجرائد والراديو، لكن ذلك المقطع كان له تأثير عكسي؛ فبدلًا من أن يطفئ فضول القارئ، زادهم شغفًا بقصة كاتبهم... أعتقد أن أمي ستكون فخورة بي الآن، ابنها كاتب كما كان يهذي طول يومه... وماذا عنها؟ لا يهم، اختارت طريقها بالأصل وما عاد لها مكان في حياتي.

بعد أسبوعين من نشر المقطع، جاء علي لزيارتي، حاملًا معه جريدة ما.

- مرحبًا أريان، كيف حالك يا صديقي؟

- بخير كما تعلم، وأنت؟

- أنا كذلك بخير، انظر بماذا جئتك اليوم، شخص ما باتت صورته تملأ الجرائد.

- حقًّا؟ دعني أرى، أبدو وسيمًا كالعادة.

- حتى ذلك المقطع الذي ملأ كل مواقع التواصل، لقد كنت رائعًا.

- أفعلًا كذلك؟ كل ما في الأمر أني كنت أتحدث عن سجني وعاطفتي باربتجال، لا شيء آخر.

- لدي سؤال يا أريان.

- ما هو؟ تفضل، وهل تحتاج طلب إذن مني، وكأنك بدوت تتحدث معي برسمية قليلًا يا علي، يزعجني هذا.

- لماذا قررت الحديث عنها وأنت لطالما أخفيتها عن الجميع؟

– لقد ضحيت بسري لأجل صديقة، لكن لا تقلق لم يعد سرًّا يستحق أن يكتم، فلم يعد هناك من يتأذى منه سواي، كما أنني لم أذكر اسمها أبدًا.

– حسنًا، أتفهم الآن. أتعلم شيئًا؟

– ما هو؟!

– أنا فخور بك يا رجل، فخور بنفسي لأنني صديق شخص يستحق الاحترام.

– لماذا؟

– لأنك شخص سمع صداه من بين الركام ومن تحت الحطام، لمع بريقه وسما بنفسه من لا شيء. في الحقيقة، كان هناك الكثير من المنافقين والمزيفين والمخادعين والخائنين، والشخص الذي لن أنسى جميله الدكتور أحمد، وكذلك "جوري".

– بالفعل، لقد كانوا كثرًا لكن لم يكن يراهم أحد سواك، الكل كان يغض بصره عن الواقع المؤلم.

– حتى أنا حاولت ذلك لكن دون جدوى، وكما اعتدت أن أقول في نصيحتي المعتادة للذين أحبهم...

في هذا العالم الصغير، كل شيء على مرمى بصرنا لكن نحن من نختار ما إذا كنا نرغب برؤية الحقيقة أم لا، وكنصيحة فقط: انظر ببصيرتك لا ببصرك، فالذي ينظر ببصره فقط في غالب الأحيان يكون في أعماق الظلام.

– آه، من يفهمك يا صديقي في هذا العالم سواي؟

– أظن أنه لم يبقَ الكثير يا علي، يجب أن أضع بصمتي خارج هذه الغرفة بكل تأكيد.

– نعم، كذلك.

ثم غادر علي... لم يكن يزورني كثيرًا لكونه يعلم حاجتي للوحدة والتفكير بعمق... ويعلم تمامًا بأنه إن لم أقتنع بفكرة ما بمفردي فلن أقتنع أبدًا.

ويومًا بعد يوم ازدادت مؤلفاتي شهرة وشيوعًا بين الناس، وكذلك قصتي التي جذبت الأنظار. بدوت للبعض غريب الأطوار، والبعض الآخر

رآني ذلك العاشق الولهان، ومنهم من رآني كاتبًا مميزًا، والبعض الآخر قال إنني مجنون وانتهى... على كلٍّ، من يهتم بآرائهم وأحاديثهم! تبًّا لهم، لكني أقدر بكل تأكيد، أقدر من يحترم فني.

بعد مدة، جاء اليوم الذي اكتملت فيه السنتين. سمعت أمي تطرق الباب!

– ادخلي يا أمي.

– بني، لقد جاء أحدهم لزيارتك!!

– من؟ أهو أحد الإعلاميين؟

– قال ألا أخبرك بمن يكون، وقال إنك ستسر لرؤيته.

– أمي، تعلمين أني لا أحب مثل هذه المفاجآت التافهة.

– لقد أصر عليّ يا بني، وأنت تعلم أني أهتم بالأشياء التي تسعدك. أنت تعلم قلب الأم يا صغيري.

– آسف أمي... لا بأس، أدخليه.

خرجت أمي من الغرفة وأتت به، في اللحظة التي وضع فيها قدمه داخل الغرفة، رفعت رأسي إليه، والتقت العينان في لحظة غموض...

- مرحبًا أريان... لقد مضى وقت طويل، كيف حالك؟

- أهلًا جوري... أجل، بالفعل لقد مضى وقت طويل. كما ترين، بخير، كل شيء على ما يرام. وأنت، ما أحوالك؟ سررت لكونك كذلك. أنا أيضًا بخير، كما تعلم، لازلت أساير دراستي الجامعية وما إلى ذلك.

- تفضلي، اجلسي، لا تبقي واقفة هكذا.

- شكرًا.

- إذا، ما سبب هذه الزيارة المفاجئة؟

- لا شيء... فقط أردت أن أطمئن عليك، فلم نتحدث منذ زمن. كما ترين، بخير، لا ينقصني شيء!

- لماذا ترمقني بهذه النظرة الباردة؟ أهناك شيء ما؟

- لا، على الإطلاق!!

- إذًا، ما سبب هذا البرود؟ ألم تشتق إليَّ أيضًا؟

– وهل اشتقتِ إليَّ أنتِ؟!

– نعم، كثيرًا.

– واليوم فقط جاء بك الشوق وجئتِ لزيارتي. كم مضى على آخر محادثة بيننا؟

– لقد مضى ما يقارب الثلاث سنوات، لكن صدقني كنت دائمًا في بالي.

– هلا نظرتِ في عيني جيدًا؟

– لماذا؟

– فقط انظري، وأخبريني ماذا ترين فيهما؟

– لا أستطيع!!

– نعم... فجوري القديمة التي أحببتها فقط يمكنها أن تقرأ ملامحي وكلمات عيوني.

– لا، جوري ما زالت نفسها، ولم تتغير يومًا.

– وإن كانت جوري هي نفسها، فأريان ليس نفس الشخص يا جوري. عليك أن تعلمي أنه تغير كل شيء.

– لا... أريان الذي أعرفه لا يمكن أن يتغير. لقد رأيت ذلك المقطع، واستمعْتُ إلى حديثك جيدًا، وما فهمت منه هو أنك لا تزال تحبني وتحتاجني بجانبك.

– كنت أحتاجك قبل سنتين وسبعة أشهر، قبل أن تقرري تجاهلي وإخراجي من حياتك... لمَ لم تسألي عن أريان حينها؟ هل أنعش ذاكرتك بما حدث قبل رحيلك بمدة، ثم سأخبرك بالباقي، لذا أنصتي ولا تقاطعيني يا صغيرتي... كنت تعلمين ومتأكدة تمامًا أني أحبك بصدق ولن أتخلى عنك أبدًا. شعرتِ بأنك ملكتِني، وما عاد بوسعي العيش بدونك، وذلك ما ظننتُ أنا أيضًا، فقررتِ أن تهمليني إلى أبعد الحدود.

كل تلك الرسائل التي لم تردّي عليها جعلتني أندم على إرسالها، لكن لا تقلقي، فقد تألمت بما فيه الكفاية... لقد كنت أخبر أمي عنك، وذلك ما ندمت عليه أكثر، فأمي بدأت تنظر في عيوني كل مرة تراني فيها حزينًا، وتقول: "هل اشتقتَ إليها؟"

لم يكن بوسعي أي شيء سوى الابتسام دون جواب، لكن ماذا كان بإمكاني أن أقول؟ هل أقول إنها تتجاهلني لدرجة قد لا نتحدث الأسابيع متواصلة؟ وبعد أن رحلتِ دون عودة، كنت أظنها أسابيع وتمر، لكنني اقتنعت برحيلك نهائيًا. عندما اختفت أخبارك، وحلت الأشهر بيننا، لو وعدتني بأنك ستأتين، لانتظرتك، لكنك لا تأبهين... مرت بي أيام كئيبة.. "أيام كئيبة"؛ لا شيء من جديد، عدت لخط البداية وكأن شيئًا لم يحدث، رغم أن الكثير حدث... لا شيء ناقص لأنه لم يكتمل يومًا، لطالما كان هناك فراغ ولا يزال... تحدثت من قبل عن الحب، الذي وصفته بأنه رهاني في الحياة الذي لن أتراجع عنه أبدًا، ولم أكن لأتراجع عنه أبدًا، لكني للأسف خسرتُه... خسرتُ نعم، خسرتُ...

لقد خسرتُ بالفعل، كنتم جميعًا على حق، وأنا المخطئ، نعم أنا، ربما أشعر الآن بكل شيء حولي، لكني لا أشعر بشيء أبدًا. أنا في قمة غضبي، لكني في قمة حزني... أردت مغادرة مكاني، لكن لم أستطع المشي، أردت أن أحلق بعيدًا، لكن لم تكن لي أجنحة. أريد الغوص، لكن أخشى أن تغرقني ذكراك...

أنا الذي تركت نفسي لأجلك، لكنك لا تبالين، ولا تستحقين ذلك القلب الذي أحبك بجنون. ربما لن أستطيع كرهك يومًا، لكن بالتأكيد سأكره القلب الذي أحبك...

تألمت كثيرًا، لكن من يهتم لك إن تألمت؟ تستحق كل ما يحدث لك، لأنك طيب وصادق في زمن لم يعد فيه للصدق وجود.

آه، آه، ماذا يحدث؟ لا شيء على حاله أبدًا، لمَ كل هذا التناقض بين البارحة واليوم، بين الشهر الماضي والشهر القادم... لعله يحدِث خيرًا، لكنني الآن لست بخير، فهل يمكن أن يكون المستقبل أفضل بقليل؟ لقد كان هذا الكلام على لساني بعد شهرين من غيابك، من سوء حظك أني أدون كل أفكاري، حتى مع نفسي أدونها، لذلك لا تقلقي، لا أنسى شيئًا...

وبعد كل هذا، بدأت أتوهم وجودك في كل مكان، فأتساءل: ماذا يحدث؟ هل تشعر كما أشعر؟ أشعر بأني تائه، فهل هذا حقيقي أم أنه مجرد سراب؟ أراها في كل مكان... فهل هي حقًّا من أراها أم أنني أحلم فقط؟ عندما أراها، كل شيء يتغير... فهل يتغير كل شيء حقًّا أم أنه مجرد وهم؟ لا أعلم كيف أو متى، لكن على الأقل أعلم أني عشقتك بجنون ومنذ الصغر.

لا أعلم كيف أفسر مشاعري حينها... يتداخل بي كل شيء، وبدا كالحلم حينما تشعر بالحب وبالخذلان والحزن... لوهلة فقط، كنت الشمس وأنتِ أشعتي،

كنت القمر وأنتِ ضيائي،

كنت الغيم وأنتِ مطري،

كنت الليل وأنتِ ظلامي،

كنت الطائر وأنتِ أجنحتي،

كنت القلب وأنتِ نبضي،

كنت العاشق وأنتِ معشوقتي.

فكيف غدوتُ؟

أنا المسدس وأنتِ رصاصتي،

أنا الجرح وأنتِ ألمي،

أنا الضحية وأنتِ قاتلتي،

أنا السجين وأنتِ معذبتي.

أتذكرين عندما كنت أقول لك إنني منذ زمن طويل وأنا أتساءل: لماذا أحببتك من دون غيرك؟ لماذا لم أستطع أن أنساكِ أبدًا؟ لماذا كل هذا الشوق وكل هذا الحنين؟ لكن كلما نظرت إليك أجد الإجابات عن كل الأسئلة، وحينها أغرق من جديد في حبك. أتناول وجودك داخلي ووجودي. وجودك كان يضحكني؛ التكامل الناقص بيني وبينك، كلما نظرت بعيدًا لأراك أجدك بجانبي، وكلما نظرت بجانبي أجدك عني بعيدة. أقترب فأراكِ تبتعدين، أبتعد فأراكِ تقتربين، لكني أرى الانسجام وسط كل التناقض.

هل تُراني كنت أحمقَ عندما أحببتك؟ لم أكن أكذب حينما قلت: "كلما نظرت إليك أغرق من جديد في حبك"، لأني في اللحظة التي احتجت أن أراك فيها وأقع في حبك، لم أجدك. فلا تستغربي، ظللت أشهرًا باحثًا عني ولم أجدني. في بعض الأحيان يهتز كياني، لا أعلم حتى من أكون، ولا بماذا أشعر. يصيبني نوع من الاغتراب، فأخلو إلى ذاتي لعلي أعلم ما بي، فإذا بي أجدها فاقدة لنصفها الثاني. لست أدري ما بها، فسألتها:

– ما بك؟!

فأجابت وهي منكسرة محطمة:

– نصفي موجود لكنه فاقد لذاته أيضًا!

إذًا هو مثلي يشعر بالاغتراب. حدثيني، ألم تعاهديني أن أكون السند الذي تتكئين عليه؟ فلماذا الآن إلى الصمت تميلين؟ ألا يكفي وجودي؟ إننا شخصان بروح واحدة، فلماذا عني تنفصلين؟!

– ألا تذكرك هذه الكلمات بشيء؟ ربما سمعتها ذات يوم من شخص ما!

– بلى، لقد قلتها لي عندما كنت أمر بحالة اكتئاب حادة، ولم أكن أرد على رسائلك.

– جيد أنك لا تزالين تذكرين.

– نعم أذكر.

– إذا كنتِ تعلمين بأنك ذاتي الثانية ونصفي الآخر، وأنني كنت أحاول جاهدًا أن أكون سندًا لك وأقوم بما في وسعي من أجلك، أنتِ فقط لا تفهمين لماذا رحلتِ.

– توقفي، لم أنهِ كلامي بعد، كم هو سيئ ذلك الشعور، لا يمكن وصفه بالكلمات فقط، هو ليس بخيبة فقط، هو ليس بفقدان أمل، وكأنه نوع من الموت تبقى فيه على قيد الحياة. لا أعلم ما بك يا قلبي حتى جعلتني أعاني بذلك الشكل، أنا لم أكن شخصًا سيئًا أبدًا، وأنت تعلم... لم أوذِ أحدًا، لم أجرح أحدًا، لماذا أنا من يعاني دائمًا؟...

أجبني أيها القلب، فإني من صمتك قد سئمت، وثرثرتك قد تعبت. لماذا تجعلني أسير في هذا الدرب؟ أهذا هو درب الحياة الضيق؟ أهذا هو طريق المعاناة المحفوف بالألم؟ لم أكن أعلم أن مرادف الألم هو الحب، إلى أن أحببت وتألمت.

أتعلمين كم اشتقت إليك، وفي الكثير من الأحيان سلبني التفكير بك النوم. مضت الأيام والليالي كما تمضي الأشهر والسنون... أتحسس ثنايا ذاكرتي لعلي أستيقظ يومًا ولا أجدك بين الذكريات. وكلما تفحصتها وجدت ذكراك أكثر إشعاعًا من اليوم الذي سبقه. لا أعلم كيف أدمن وجودك وأنتِ عني بعيدة، هل كان حبًّا أم نوعًا من الجنون؟ فقد رافقتني

ذكراك في كل لحظة. كيف تكونين معي وعني تبعدين؟ ومضت الأيام والليالي والأشهر والسنون، وها أنا إلى الآن تائه في ثنايا الذاكرة...

لماذا يحدث هذا؟ أريد الخروج لكن لا أستطيع. أريد النسيان لكن لا أستطيع. أريد الموت لكن الموت لا يريدني. أريد الغرق لكن البحر لا يتحملني. أريد الرحيل لكن الطريق سئمت مني. أريدها لكن هي لا تريدني.

تبًّا لكل هذه التناقضات ولكل هذه الأفكار، فقط أريد أن أرتاح قليلًا... أشعر بصداع شديد في رأسي، وألم يخزني في صدري، وذاكرة خارجة عن سيطرتي. تبًّا لهذا، أريد أن أتخلص من كل هذا العناء، أريد العودة للسلام الذي كان يحتلني قبل أن أعرفك، أريد العودة إلى الطمأنينة والأمان حين كان قلبي قطعة واحدة وليس أشلاءً...

لم أختر الصدفة، فلماذا اختارتني هي؟ لم أختر الحب، بل الحب اختارني. اخترت الموت لكنه بإذن ربي فلا يختارني. لم أعد أفهم شيئًا في هذه الحياة البائسة التي أصبحت عبارة عن جحيم أرضي، ولا تعلم حتى على من ستلقي اللوم. أنا لم أفعل شيئًا سيئًا سوى أنني أحببتك وكنت صادقًا في حبي لك، فلماذا هذا؟...

ثم أغلقت مذكرتي وقلت لها:

– ما رأيك؟ هل شعرتِ بما كنت أشعر حينها؟ هل علمتِ الآن بما مررتُ بدونكِ؟

فقالت والماء ينهمر من عيونها كالمطر:

– نعم، أنا آسفة على كل شيء يا أريان. لقد فعلت ما فعلت عن جهل.

– أنا من عليه الأسف، لم يكن عليَّ قول شيء من هذا، لكني فقط أردت أن تعلمي بأني تألمت كثيرًا. تلك التساؤلات كلها كانت تملأ عقلي عن آخره حتى اقتربت من الجنون. عندما اخترت سجن نفسي لم يكن ذلك حبًّا في الوحدة، بل لأنني أخفيت نقطة ضعفي الوحيدة فيه، ذلك القفص... قفص الذكريات ذي القضبان الشائكة، كان قاسيًا جدًّا ولم يرحمني...

– أريان، أنا الآن هنا، ولا زلت أحبك، سأبقى بجانبك ولن أرحل أبدًا.

– جوري، لقد فات الأوان، تأخرتِ كثيرًا!

– لقد رحلتُ لأمنحك الوقت لتعمل وتحقق أهدافك، لا لأتركك وحدك! افهم موقفي أرجوك.

– لقد رحلتِ وتأخرتِ في العودة حتى نسيت حبك... يبدو أنك منحتني أكثر مما ينبغي من الوقت!

ناديت أمي بعدها:

– أمي، أعدي شيئًا للعشاء من أجل ضيفتنا، فقد تأخر الوقت وهي على وشك الذهاب.

– حسنًا يا بني، هلا جئتِ معي يا بنيتي لمساعدتي في تحضير الطعام، إن كنتِ قد أنهيتِ الحديث مع أريان؟

– حسنًا، خالتي، أنا قادمة، إلى اللقاء أريان.

– وداعًا.

بينما يعدان العشاء، سألت أمي جوري قائلة:

– من أين تعرفين أريان يا بنيتي؟

– أنا جوري.

– حقًّا جوري نفسها؟!

– نعم، هل سبق وحدثك عني يا خالة؟!

– نعم، كثيرًا، لكن كان هذا منذ ثلاث سنوات على ما أذكر. من بعدها لم يتحدث عن شيء أبدًا.

– ماذا كان يقول لك عني؟

– لا شيء تقريبًا، فكلما ذكرك، راح هائمًا في سهوه وكأنما ارتحل إلى عالم آخر... إنه يحبك جدًّا، يا بنيتي، إياك أن تؤذي قلبه، فهو شخص طيب للغاية، بالرغم من القسوة التي يحاول أن يبدو بها، إلا أنه لا يزال الشخص نفسه. وحينما يتجاوز حالته فستكونين عروسًا في بيتنا.

– اعذريني يا خالة، لا أستحق ابنك أريان.

– لما يا بنيتي تقولين هذا الكلام؟ ألا تحبينه أنتِ أيضًا؟!

– بلى، أحبه كثيرًا، لكن خذلته في لحظة كان فيها بأمسِّ الحاجة إليَّ.

– ما الذي تقصدينه يا جوري؟

– لا شيء خالتي، يبدو أن الطعام قد نضج، هيا سأجهز المنضدة.

– حسنًا...

لقد بدا على جوري الحزن الشديد، وخاصة بعدما سمعت كلام أمي الذي أبان لها عن المكانة التي كانت تحتلها في قلبه. حينها فقط بدأ الندم يأكل أطرافها، وبعد أن جهزا العشاء وبدأتا بالأكل من دوني، سألت جوري والدتي:

– ألن يتناول أريان العشاء معنا؟

– لقد أخذت له عشاءه إلى غرفته، فهو لا يأكل معنا منذ سنتين.

– أحقًّا، إلى هذه الدرجة؟!!!

– نعم، ولم يخطُ خارج تلك الغرفة قط، مهما حاولنا معه، لا أعرف إلى متى ينوي البقاء فيها.

بعد أن تناولا طعامهما، ودعت جوري والدتي وغادرت. بعد رحيلها تركت لأمي رسالة تخصني، أعطتني إياها صباح الغد. بصراحة لم أكترث لها ولا لمضمونها، ولم يأتني أي فضول لقراءتها... فقط أمسكتها وخبأتها في مكان ما بين مذكراتي.

شعرت بأن الوقت قد حان، فقد مرت سنتان ويومان، وآن أوان الخروج من هذا المكان. وقفت أمام القاضي طالبًا حريتي، فخاطبني:

– اقترب أكثر لأرى ملامحك عن كثب.

– ها أنا يا سيدي، لقد جئتك طالبًا حريتي، يكفي هذا، لقد أخذت ما يكفي من العقاب!

– يبدو أنك أخطأت في تفسير المفاهيم، لم يكن عقابًا، بل كان حفاظًا عليك وعلى نقائك.

– سنتان من أجل الحفاظ عليَّ؟ ما هذا الهراء يا قاضٍ، أو تريد أن أسميك: يا ضميري؟!

– أخيرًا بدأت تعترف بي أنني جزء منك، لكن الآن، أنا المتحكم، فلو تعلم أني لو تركتك بينهم ولم أحثك على الوحدة، لتلوثت بهم.

– لقد عشت معهم عشرين سنة ولم أتعرض للتلوث، فماذا كانت لتفعل سنتان؟

– سنتان في لحظات الضعف كانت كفيلة بأن تغير مجرى حياتك، فلا تتعجب، وقد تغيرت بالفعل للأفضل، أليس كذلك؟ على كلٍّ، أنا مقتنع

بك منذ البداية، لكني أحاول عن قصد افتعال هذه الجدالات بيني وبينك، ربما هذا يمتعني أو ما شابه.

– أنت حر طليق، افتح باب قفصك بنفسك واخرج لتثبت لمن حولك أنك الأفضل.

– حسنًا، غدًا مساءً سيكون إطلاق سراحي، أرجو أن تكون هناك لوداعي.

– ما من وداع بين الذرة والنواة... أنت الذرة وأنا النواة، كلانا حرَّان، فلا تقلق، أنا الغد بعد ليلة طويلة من الانتظار.

كنت متحمسًا للغاية، في الحقيقة اشتقت إلى الطرقات والجدران وبعض الأصدقاء، وكذلك الجلوس مع والدتي وأبي، سيسعدهم خروجي بكل تأكيد. لم أخبر أحدًا بأنني سأخرج، قررت أن أجعل ذلك المساء لي وحدي. استحممت، وغيرت ملابسي، وخرجت خُلسة. لقد كانت خطواتي الأولى خارج عتبة الباب أشبه بالخيال، كما لو أنني كنت سجينًا حقًّا. ولما لامست أشعة الشمس وجهي شعرت ببعض الدفء، فتوجهت بعدها مباشرة إلى خارج المدينة وجلست في مساء غريب:

مساء جميل، غريب، هادئ، بعيد، وحيد...

ذهبت إلى الطبيعة لعلي أفتح خاطري المغلق بإحكام، الذي لا رغبة له في شيء. ذهبت إلى مكان لا يراني فيه أحد ولا يسمعني فيه أحد. جلست وسط حقول من الأزهار، لثمت عطرها وامتزجت مع الهدوء الذي يعم المكان، فقط زقزقة طيور وخرير مياه وصوت نسمات الهواء الخفية تداعب أوراق الأشجار. أراحني ذلك الهدوء نوعًا ما من هموم الحياة.

تأملت وتأملت طويلًا في هذه الحياة. وجدت أنها لا تستحق منا كل هذا العناء، فقد ركزنا على الحزن والهموم، ونسينا أننا ما خُلقنا لنحزن. فما دمت تفكر في الحزن، فستحزن. اخرج، ابتعد، ارحل، واترك الحزن خلفك، حينها ستعيش السعادة التي لا يدركها الكثير. فترات الصمت تحمل في طياتها عناوين عريضة لا ينبغي تجاوزها. فكم من شخص مر من الصمت فصرخ، وكم من شخص مر من الصمت فهمس، ومنهم من بكى واشتكى، ومنهم من دفن ونسي، ومنهم من اكتأب، ومنهم من مر من الصمت فصار حيًّا.

الصمت حكمة، والصمت منجاة من عذاب الحياة. للحظات، أفلت من قبضة هذا العالم ومن قبضة أي قيد يقيد حريتي وحرية فكري، لم يكن لي أي خيار، لذا ذهب خيالي حيث أراد، ولم أكن أملك أي فكرة عن أي وجهة أتوجه إليها. أملك من الوقت ما يكفي لقضائه وحدي داخلي،

ومعي. لم يكن هنالك ما يعكر صفو مزاجي، جلست دقيقتين أو ساعتين، من يدري! المهم أنه كان هناك ما يكفي من الوقت لأهيم في اللاوجود الوجودي، إلى أن انتهت اللحظة على لوحة الغروب التي تجعلك تذوب مع غروب الشمس الذي يختفي وسط الظلام اللامع. ثم ودعت المكان عائدًا إلى أحضان أمي وطمأنينة أبي، لأكون في العالم محاربًا لا يستسلم، يواجه العالم مزمجرًا. أنا الحر، أنا الحقيقي، فلا تسأل عني أكثر، دعني أخبرك من أنا:

"أعوذ بالله من قولة أنا".

أنا غامض كظلام الليل، وواضح كضياء النهار.

ستجدني بين مرِّ الأيام وحلوها، أسير ما بين السماء والأرض، أفتش عني وأنا غائبٌ عني.. فلا تسألني عما مرَّ بي، لن تفهمني حتى لو أطلت شرحي وأكثرت كلامي، لن تشعر بي ما دمتَ لست أنا. في حين لن تجدني لو قلبت الأرض وما تحتها، تجدني بين كلمات قصيدة حزينة وبين أسطر رواية بطولية، أنا. فلتدعني أعيش كما أنا، حرًّا، كطائر سئم قفصًا والجناحين المكسورين، فلا تسألني من أنا. "هذا أنا!"

عدت بعدها بساعة إلى بيتي وطرقت الباب طرق الغريب. كنت أريد مفاجأة والدتي. فتحت أمي الباب على صورة ابنها القديم والابتسامة تعلو وجهه، فسألتني متفاجئةً سعيدة:

– كيف خرجت ولم أرَكَ؟ ظننتك ما تزال في غرفتك؟

– لقد خرجت خُلسةً ههه.

– لمَ لم تأتِ إليَّ أولًا؟ تعلم أن شوقي إليك قطع فؤادي.

– أعلم يا أمي، لكني فكرت في أن خروجي إليكم مباشرة سيكون ناقصًا بعض الشيء، لذلك قررت أن أخرج قليلًا من أجل إزالة الأثر الذي تركته في كل هذه المدة من الوحدة.

– أفهمك يا بني، لا بأس.

– من الطارق يا أم أريان؟

– إنه ابننا أريان يا جواد.

– حقًّا!! هل خرج؟

– نعم يا والدي، أنا هنا الآن، لا تقلق.

– أهلًا بك، كاتبي، لقد اشتقنا إلى جلوسك معنا كثيرًا.

– أنا أيضًا يا والدي، لقد اشتقت إليكما.

قالت أمي باكية:

– لقد خشيت يا بني أن تبقى هناك للأبد كما كنت تقول.

– لا تقولي هذا الكلام يا أم أريان.

ثم مسحت من على خد أمي وضممتها إلى صدري قائلًا:

– أمي، لم أكن أعطيكم أملًا بأني سأخرج كي لا تنتظروا، فانتظار من لن يأتي أمر مؤلم جدًّا. فلتتوقفي عن البكاء الآن، لا داعي لذلك، فابنك هنا الآن، وانسي أمر هاتين السنتين اللتين مضتا.

– حسنًا، بُني، نحن سعيدان جدًّا بعودتك إلينا.

– أنا كذلك... والدي، أريد تغيير غرفتي إن لم يكن لديك أي مانع.

– لك ذلك، يمكنك أخذ الغرفة التي بالطابق السفلي.

– شكرًا، يروقني ذلك.

– يمكنك نقل أغراضك إليها غدًا إن شئت؟

– سأنقل بعضًا من ثيابي فقط، أريد أن تبقى تلك الغرفة على حالها.

– حسنًا كما تشاء. بني، أريد أن أخبرك بشيء.

– نعم، والدي، قل.

– نحن فخورون بك كثيرًا، كيف استطعت أن تُسمِع العالم اسمك من داخل غرفتك!!

– أنا مسرور لسماع هذا منك يا والدي، لم يكن شيئًا هينًا، تطلّب الكثير من الصبر والكثير من الشجاعة، لكن في الأخير نجحت، كما أنني لا أنسى فضل الدكتور أحمد، يجب أن ألتقيه فأنا أدين له بكلمات شكر.

– لدي رقمه إن أحببت، أتصل به وأدعوه للمجيء إلى هنا؟

– أعطني رقمه، سنؤجل مجيئه إلى هنا، أفضّل لقاءه في مكان آخر سيحبه هو أيضًا.

بعد ليلة طويلة سعيدة مع والدي، أتى الصباح وطلبت من أبي أن يتصل به ويلتقي به في التل خارج المدينة لأمر مهم، فقام والدي بما طلبته منه. قال إنه مشغول في الصباح، فأصرَّ على لقائه مساءً ووافق على ذلك.

بعد حلول المساء، ذهبت إلى التل قبل الموعد المحدد بلحظات وجلست أنتظر. ما هي إلا لحظات ولمحت السيد أحمد قادمًا، أدرت له ظهري بغية ألا يتعرف عليّ، وفور وصوله راح قائلًا:

– مرحبًا سيد جواد، كيف حالك؟ وما هو هذا الأمر الطارئ الذي قد شغل بالي؟

فاستدرت إليه قائلًا:

– ليس السيد جواد بل أريان، والموضوع يخص أريان، هو الذي طلب لقاءك.

اندهش السيد أحمد كثيرًا من رؤيتي هناك بدل والدي، يبدو أنه لم يكن يتوقع رؤيتي في أي مكان عدا غرفتي، فقال:

– هذا أنت سيد أريان، ما هذه المفاجأة؟ كيف حالك؟

– بخير، كل شيء على ما يرام، وأنت؟

– أنا أيضًا كذلك، ما سبب طلب هذا اللقاء المفاجئ والملِحّ؟

– أليس من حق المريض طلب لقاء طبيبه يا سيد أحمد؟

– بلى، معك حق، لكن في هذه الحالة لا نعلم من منا الطبيب ومن منا مريضه هههه.

– كيف حال العمل؟

– بخير، كما تعلم، العمل دائمًا متعب حتى لو لم تكن تفعل فيه شيئًا سوى الجلوس ومحادثة المرضى.

– هههه، أرجو ألا يكون جميع مرضاك أشقياء مثلي.

– لا... لا تقلق، أنت نسخة فريدة من نوعها، لقد أصبحت مشهورًا يا رجل.

– لهذا طلبت لقاءك، أردت فقط شكرك، لقد بذلت معي جهدًا كبيرًا، لن أنسى صنيعك هذا معي.

– لا بأس، سيد أريان، لقد شرفني حقًّا التعامل معك، لكن إن كنت تصر على شكري فسأطلب منك شيئًا!!

– تفضل، اطلب ما تريد، سأفعل ما دمت أستطيع!

– في المرة القادمة التي نلتقي فيها، سآتي معي بروايتيك لكي توقِّع لي عليهما.

– هذا فقط، أتمازحني هههه، حسنًا، بكل تأكيد.

– لقد أصبحت كتاباتك معروفة في عيادتي، أنصح بها الزوار ككتب ممتعة ومفيدة لمعرفة ما يحيط بهم.

– لا زلت تفعل لأجلي الكثير، سيد أحمد، أخشى أنه لن أستطيع رد جميلك هذا.

– لا جميل بيننا، اعتبرني صديقك أو أخاك الأكبر، لا تهتم لشيء آخر.

– شكرًا جزيلًا لك.

– لقد بدأت تظلم، هل نذهب الآن؟

– لا، ليس بعد، عندما تظلم تزداد أضواء المدينة سطوعًا وبهجةً، إنه شعور جيد، لماذا لا تجربه؟ أنا أشعر بارتياح شديد لهذا المكان.

– أتعلم شيئًا؟ أنا أشعر بفرق كبير بين أريان السجين وهذا الأريان، لا أعلم ما هو، لكن أريان هذا يبدو أكثر عفْويةً وحياة.

– هو كذلك، سيد أحمد.

– لا تؤاخذني، لكني تعرفت أكثر عليك وعلمت أمورًا أخرى كذلك.

– مثل ماذا؟

– لقد شاهدت مقطع الفيديو ذاك الذي تم نشره من قبل تلك الإعلامية الشابة.

– حقًّا؟ كيف بدوت؟ هههه.

– كنت رائعًا، لكن ليس هذا ما أثار فضولي، بل حديثك عن علاقتك بتلك الفتاة.

– آسف لأني رفضت إخبارك عن شيء من ذاك القبيل، لم أكن لأخبر أحدًا عنه، لكني راهنت به على نجاح صديقة لي.

– أتفهم وضعك، ليس عليك الاعتذار عن شيء. لقد شاهدت مقطع الفيديو مرات عدة، وما أثار فضولي هو عندما سألتك الصحفية عما إذا كنت لا زلت تحب تلك الفتاة؟

– وما الغريب في الأمر! قلت إنني لم أعد أحبها.

– هذا هو الغريب في الأمر، أنت تخفي الحقيقة عن الجميع، حتى إجابتك لم تكن مباشرة وصريحة بما يكفي.

– ما الذي تقصده، سيد أحمد؟!

– اسمع، قد تكون استعصت عليَّ حالتك في البداية لأني لم أكن أعلم ما يجب دراسته فيك بالضبط، لكني الآن أفهم.

– أثرت فضولي الآن يا رجل، ما الذي تفهم؟!

– أفهم أنك أخفيت حقيقة أنك لا زلت تحب جوري.

– ماذا! ليس كذلك، لقد نسيت أمرها تمامًا، مهلًا... مهلًا، كيف تعلم اسمها؟!

– إذًا، هذا هو اسمها فعلًا، لقد ذكرت في البداية وصفك لها على أنها وردة حمراء في حقل أخضر، وجوري معناها الوردة الحمراء.

– أحسنت قولًا، أنت على حق في هذا... لقد تعمدت ذلك لكي أوصل لها الرسالة، لكن يبدو أن هناك من يهتم بتفاصيلي أكثر منها.

– نعم، بكل تأكيد لا تستخف بي، فقد أمضيت سنين حياتي في الدراسة لكي أفهم مثل هذه الأمور، ولكن كيف عرفت أني لا زلت أحبها؟

– ردّات فعلك الباردة قد تزحزحت لوهلة وترددت بعض الشيء، وبريق عينك الذي لا يمكن إخفاؤه كان كافيًا.

– في الحقيقة، أنا مستغرب من الأمر، فأنا نفسي لا أعلم ما إن كنت أحبها أم لا.

– ماذا تقصد بقولك هذا؟

– كل ما تبقى داخلي هو ذكريات مؤلمة، لا أعلم إن كان حبها لا زال يسكن داخلي أم أنه اختفى ولم تبقَ سوى تلك القطع الصغيرة منها.

– اسمع، ربما تعلم أكثر مني عن الحب، فقد عشته مدة تكفي لكي تجعلك تقرر ما إن كنت تحبها أم لا، لا تأخذ كلامي على أنه حقيقة

مطلقة، فنحن نعطي افتراضات فقط، وأنت عليك تأكيدها. وليكن بعلمك، أنا لم أقع في الحب يومًا، كان زواجي تقليديًّا من فتاة اختارها لي والدي، لذلك أنا لست أكثر منك معرفة بهذا المسمى "الحب". قرأت عنه الكثير ولم أصل إلى شيء، إنه غامض مثلك تمامًا عندما التقيتك أول مرة.

– لا... لا تقلق، على كلٍّ لن يشكل الأمر أي فرق، سواء كنت أحبها أم لا، ستكون النهاية واحدة... افترقنا للأبد، ذبلت الوردة الحمراء في نظري وما عاد جمالها يغريني حينما توقفت عن تعطير أيامي برائحة حضورها.

– فكر في الأمر مليًّا، ففي بعض الأحيان لا تكون خياراتنا صحيحة مهما كانت منطقية، ثم إياك أن تتجاهل الأصوات التي داخلك، لعلها ترشدك إلى الصواب!

– لمَ لا نمضي؟ بدأت أشعر بالبرد، كفانا اليوم.

– ليس هناك برد في الحقيقة، إنها فقط برودة مشاعرك التي تغمر جسدك حين تتذكر تخليها عنك، على كلٍّ، كفانا لنغادر.

غادرنا المكان، وافترقنا في مفترق الطرق، كلٌّ منا ذهب إلى بيته. دعوته للعشاء معنا لكنه رفض... تجاهلت بعدها الموضوع الذي تحدثنا

عنه، وتجاهلت كل المشاعر غير المفهومة التي تخالجني. ربما كان هذا حلًّا لكي لا أفكر في أشياء غير موجودة، فحين يفلت السهم من القوس، فليس هنالك أي أمل في أن يعود إليه أبدًا.

في اليوم الثالث، التقيت بعلي، سرّ كثيرًا لخروجي أخيرًا، كما أنه تساءل عن سبب خروجي وماذا كنت أنتظر؟ أي إشارات؟

فأجبته:

– لا أدري يا صديقي، خرجت حينما شعرت بأنه الوقت المناسب لذلك.

– جيد، المهم أنك خرجت، لقد افتقدتك كثيرًا يا رجل، لقد تركت هذا العالم باهتًا بلا ألوان.

– حقًّا إلى هذا الحد؟!

– هاه، بل أكثر يا صديقي، أقسم لك بأني شعرت بوحدة شديدة بدونك.

– لا عليك، لقد عدت يا صديق.

– إذًا، ما هي الخطوة التالية؟

– عن أي خطوة تتحدث!؟

– يبدو أنك إلى الآن لم تفهم حياتك الجديدة، لقد أصبح لديك معجبون يحتاجون توقيعك، ونقاد يحتاجون إقناعك، وكذلك أصدقاء يحتاجون لقاءك. لا تقل لي بأنك لا تفكر في كل هذه الأشياء.

– صراحةً، لن أفكر في أي منها، قضية المعجبين هذه لا تروقني.

– اسمع، كاتب لا يهتم لمعجبيه فهو منتهٍ، عليك أن تدرك هذا.

– ليس الأمر بذلك الشكل، أنا أقدرهم، لكني أشعر بأني أتعالى عليهم حين أوقع لهم أو ما شابه، أنا فقط شخص عادي مثلهم.

– لا، لست عاديًّا! أنت الكاتب أريان، أما بالنسبة لقضية التعالي تلك، فالناس سيشعرون أنك تتكبر عليهم حين ترفض لقاءهم والتوقيع لهم، هذا ما في الأمر.

– حسنًا، إن كان كذلك، فلماذا لا، سأحاول التأقلم. كما إنني كنت أفكر في سؤال شيماء!

من تكون شيماء هذه؟!

– إنها صديقتي الصحفية التي قابلتها في المرة السابقة.

– آه، نعم، أي سؤال، فقد سألتك كثيرًا منها؟!

– سألتني عما إن كنت سأحضر معرض الكتاب لهذه السنة التي أوشكت على الدخول.

– إذًا، ماذا، هل ستحضره؟

– لقد بدأت التفكير في الموضوع توًّا، كما أن لدي كتابًا آخر يحتاج للنشر الآن.

– لا تقلق، حين يأتي موعد المعرض ستكون قد اعتدت على كل شيء من هذا القبيل، نعم، هل نقوم بذلك الأسبوع المقبل؟

– نعم، سنفعل. علي، لاحظت أنك تتحدث عني فقط! ماذا تفعل أنت؟

– أنا... لقد انضممت إلى صفوف الجيش، أنا جندي الآن.

– ماذا تقول؟! أحقًّا هذا؟

– نعم، كذلك، لقد كان هذا منذ سنة تقريبًا.

– ماذا عن أحلامك يا رجل؟ هل تركتها جميعها؟

– نعم، أنا الآن جندي، واجبي حماية وطني، لا أحلام فوق هذا.

سأتزوج فتاة غريبة عني بعد سنة من الآن.

– يبدو أني لست الوحيد الذي تغير، كيف ستتزوج فتاة غريبة عنك؟ أعني ليس هذا ما كنت تفكر فيه.

– لقد اختارتها لي والدتي، تقول بأنها جميلة وتجيد الطبخ والتنظيف وما إلى ذلك...

– ألا تشعر بأنك تسرعت قليلًا بشأن هذا؟

– ماذا أفعل؟ أنا لا أملك فتاة أحبها وتحبني مثلك أنت وجوري.

– لم يكن عليك قول هذا يا علي.

– لمَ، أليس الحقيقة؟

– كانت حقيقة قبل ثلاث سنوات من الآن، أما الآن فهي كذبة مؤلمة، لا داعي لأن تذكرني بها.

– آسف، لم أقصد جرح مشاعرك بهذا الكلام، كما تعلم، أنا أيضًا أشعر بغرابة ما أنا مقدم على فعله، لكن ما باليد حيلة.

– لا عليك، فأنا من عليه الاعتذار. أنت من يقرر ما إن كان ما تختاره صائبًا أم لا.

– لا يهم، إذًا لننسَ الموضوع. أعتقد أنه عليك دعوة صديقتك الصحفية من أجل تصوير مقطع فيديو آخر يتحدث عن خروجك وعما تخطط لفعله في المستقبل القريب.

– نعم، أنا كذلك كنت أفكر في نفس الأمر. سأفعل ذلك، لكن بعد غد. لازلت أحتاج إلى بعض الراحة، لكني سآخذ منها موعدًا من الآن لكي تفرغ لي بعضًا من وقتها.

– كدت أنسى، كيف حال أخيك؟

– أخي، ربما تعلم أنت أكثر عنه. أنا لم أره ولم أسمع عنه شيئًا في هاتين السنتين.

– جلّ ما أعلمه هو أنه غادر البلد في الأشهر الأولى التي سجنت فيها نفسك. لكن ألم يسأل عنك يومًا؟ حقًّا هذا؟!

– ربما سأل أمي عني ونسيت إخباري، لكني أرجح أنه لم يفعل وأنا لن أفعل.

– لمَ؟ هل تشاجرتما أو ماذا؟

– لا، كل ما في الأمر اختلاف التفكير بيني وبينه لا يسمح لي بالجلوس معه أو مع أصدقائه في مكان واحد دون أن أغادر في منتصف جلستنا. لكن مع ذلك نحن أخَوان نحب بعضنا. إن احتاجني فسأكون سندًا له.

– أجل، هكذا إذًا، لا بأس بالتحدث إلى أخيك والسؤال عن أحواله. إنه في بلد غريب عنه.

– وكأنك بدأت تتصرف كأمي يا علي! ههه!!

– أعلم، وأعلم أيضًا أنك اعتدت الوحدة لدرجة أنك لم تعد تفكر بشيء سوى نفسك وتنسى الباقي. أنا فقط أذكرك بحياتك، كما أنني لن أكون هنا لفترة طويلة.

- العمل؟؟ سيبدأ التحجج بالعمل الآن!

- لا، ليس كذلك.

- لا عليك، صديقي. أتفهم وضعك، لن أعترض طريقك.

غادر علي بعد حديث طويل دار بيننا، واتصلت بشيماء لأخبرها بأنني أريد القيام بلقاء صحفي معها إن كانت مهتمة بالأمر. فوافقت على ذلك وكان موعدنا بعد يومين.

لقد انتهيت من تجهيز غرفتي الجديدة. جلست على كرسي قرب النافذة أحاول إيناس نفسي بالطبيعة... لكن الغرفة تبدو لي ناقصة وغريبة رغم جمالها. في الحقيقة سأفتقد تلك الغرفة كثيرًا. لقد باتت جزءًا مني ومن ذكرياتي... تلك الستائر والمكتب والجدران وأريكتي القديمة، كل شيء أراه الآن فيها مميز بشكل جميل. قد يأخذ الأمر وقتًا لأعتاد على هذه الغرفة.

لحظات وسمعت صوت أمي تنادي:

- أريان، تعالَ إلى هنا.

- ماذا يا أمي؟ ما الأمر؟!

– تعالَ لتلقي نظرة على من جاء.

ذهبت، فكان الزائر هو أخي. عجبًا، لم يمضِ يوم عن حديثنا عنه. المهم، سلمنا على بعضنا ودخل غرفته ليرتاح حتى تعد أمي وجبة العشاء... ساعة ونضج الطعام، اجتمعنا حول المنضدة نأكل، وبينما والداي يسألانه عن أحواله وكيف قضى هذه المدة خارج البلد، انسحب من موضوعهم قائلًا:

– كيف تبلي، يا أريان؟ هل هناك جديد؟

– عن أي جديد تتحدث؟!

– عن كتاباتك طبعًا. لقد مرت أشهر بعد نشرك لكتابك الأخير.

– كيف علمت هذا؟!

– أنا أخوك يا أريان، لقد قرأت كتابيك. من الطبيعي أن أتابع أخبارك.

– سرني سماع هذا، سيكون هناك جديد الشهر القادم.

– لقد فهمت بعضًا من الكلمات التي كنت تقولها سابقًا! لقد كنت محقًّا في كل ما قلت. بالفعل، أغلبنا يحتاجون لإعادة النظر في أنفسهم.

– يسرني أكثر أنك فهمت مغزى كلامي أخيرًا.

– الأخطاء التي نرتكبها لم نكن نراها بأعيننا أو نحسها، لذلك معظمنا جاهل بما يفعل. لكن كتابيك صوَّرا الحقيقة على شكل مشاعر مخطوطة، فحينما تقرأ مشاعر الشخص الذي تؤذيه وتشعر بقليل مما يشعر، ستفهم قذارة أفعالك.

– دعنا من هذا الكلام الآن، ليس مكانه. أنت تدري.

– أنا سعيد جدًّا لأن لي أخًا مثلك. الآن يمكننا الجلوس على راحتنا دون أن ندخل في خلافات مع بعضنا.

– أنا أيضًا سعيد لهذا.

عجبًا، كيف تتغير كل الأمور فجأة! وكأنه سمع حديثي إلى علي ليقرر التغيير اليوم. كان كلامه صحيحًا، فحينما تشرح شعورًا ما بالكلام المجرد لشخص ما لا يشعر به، يبدو الأمر وكأنك تلتقط صورة لشخص أعمى

وتقول له: تفضل، انظر، هذا وجهك. هل في نظرك سيتمكن من رؤية حقيقته؟ بالتأكيد لن يفعل...!

أكملنا طعامنا واتجه كل منا إلى غرفته. أخلد أخي للنوم، وأنا واصلت التأمل داخل غرفتي.

بعدها بيومين، أتى موعد لقائي بشيماء. أخبرتها بأن تأتي إلى منزلي كالمرة السابقة ففعلت... رنت جرس الباب، فخرجت أمي لاستقبالها ولتدخلها بعدها. كما أنني كنت قد دعوت عليًّا أيضًا ليساعدنا على تجهيز بعض الأشياء... تأخر قليلًا، وبينما كنت أنتظره جلست مع شيماء نتحدث حول بعض الأمور إلى أن أتى، وعندما دخل فوجئ المسكين بجمال شيماء ولطفها أثناء الكلام، فهو لم يكن يعرفها من قبل. فاقترب مني وهمس في أذني:

– أهذه شيماء نفسها التي أجريت معها المقابلة في المرة السابقة؟!!

– نعم، إنها هي. لماذا؟

– إنها أجمل مما كنت أتصور. لماذا لم تخبرني من قبل أن لديك صديقة جميلة كهذه؟!

- وكيف كنت تتصورها؟

- لم أكن أتصور أن يكون شكلها يضاهي جمال صوتها بل وقد يزيد.

- اصمت يا هذا! ستسمعك وستبدو غبيًّا.

- نعم، أنا غبي لأني كنت غافلًا عن هذا الجمال!

ثم تدخلت شيماء متحدثة إلى كليهما قائلة:

- هاي أنتما، ما الذي تهمسان به؟!

- لا شيء. فقط كان يسألني عما إن كنتِ أنتِ الصحفية التي ننتظرها.

- نعم، إنها أنا. هل من خطب بي؟!

- كنت أنتظر أن يتكلم ويقول شيئًا، لكن لا أعلم أين ذهب عقله، وبقي ينظر إليها ساهيًا وكأنما رأى ملاكًا أو ما شابه، ويومئ برأسه للأعلى والأسفل دون سبب. فاضطُررت للإجابة بدلًا عنه معرفًا إياه:

- هذا علي، صديقي الذي أخبرتك عنه يا شيماء.

– حقًّا؟ لقد سمعت عنك الكثير من أريان عندما كنا في الجامعة.

– وأنا لم أسمع منه أنك جميلة لهذه الدرجة.

– عفوًا، أقلت شيئًا؟!

– لا، لا، هو لا يقصد شيئًا من هذا... يبدو أنه يعاني من الحمى.

– اتركه يتكلم، لماذا تمنعه؟!

– لا، أنا لا أمنعه أبدًا.

– إذًا ماذا قلت يا علي؟

– وهل تركتِ لي ما أقول... ما من شيء يُقال أمام هذا الجمال.

– شش! اسكت أيها الغبي، عذرًا شيماء، هو لا يسيء التصرف في العادة، لكن لا أدري ماذا به الآن.

– جمالها يا صديقي، لقد فتنتِني يا شيماء.

– توقف، لا تغازلني هكذا، ليست هنالك فرصة.

– هـاه! مـا هـذا يا سـادة؟ لـدينا عمـل هنـا... أنـت اسـتفق مـن مناماتك، لقد جئنا من أجل العمل وليس من أجل هرائك هذا.

– نعم، أين سنصور المقطع لأجهز معَداتي؟

– سنصـوره في غـرفتي، انتظـري دقيقـة وسأسـاعدك علـى إدخـال معداتك.

سحبت بعدها عليًّا إلى الركن لأتحدث معه، فسألته:

– ما بك يا رجل، ألهذه الدرجة توترت؟

– لم أتوتّر، لكني أرى الكثير من الزهور وعازفي الكمان خلفي.

– ما الذي تهذي به؟!

– أنا لا أهـذي، لكنهـا سـحرتني بجمالهـا يا صـديقي، لا أعلـم مـاذا حدث لي!

– حسنًا... حسنًا، هدئ من روعك الآن... سنحاول أن نجد حلًّا، لكن الآن يجب أن تركز معي لأنه علينا أن نصور المقطع، إنه مهم.

– حسنًا، أنا مركز تمامًا.

عدت بعدها وساعدتها على إدخال معَداتها، وبعد دقائق من تجهيز الكاميرا وتحسين ديكور الغرفة، كما ارتديت ملابس تليق بأول ظهور لي بعد مدة من الغياب.

وقبل بدء التصوير، همست في أذن شيماء قائلًا:

– صديقتي، اعذري عليًّا، فقد أُعجب بك ولم يسبق له أن أُعجب بأي فتاة من قبل هكذا.

– وماذا أفعل أنا؟!

– لا شيء، فقط ركزي معي الآن على التصوير.

– لكنه لا يكاد يبعد بصره عني، وبالمناسبة هو يسمع ما نقول الآن!

– لا، هو لا يسمع شيئًا الآن، لكنه قريب منا ويسمعنا نهمس لبعض، ألا يسمع!؟

– لا، هو لا يرانا، هو يراكِ أنت فقط، وأصوات الكمان وعصافير الحب تمنعه من سماع أي شيء آخر.

– حقًّا، كيف تعلم هذا؟!

– لقد أخبرني قبل قليل بذلك، ثم إني أعرف مسبقًا هذه الحالة، لا تقلقي، هو الآن في عالم آخر.

– حسنًا، سأحاول أن أتظاهر بأن لا شيء يحدث...

بدأ التصوير، وجلس علي خلف الكاميرا ينظر إلى الحوار أو ينظر إلى شيماء وهي تحاورني.

– إذًا، سيد أريان، سُرِرْنا أن نجدد لقاءنا معك مرة أخرى.

– هذا من دواعي سروري، آنسة شيماء.

– أول شيء أرغب في سؤالك عنه، سيد أريان، وهو سبب تغييرك لغرفتك؟ قد يبدو هذا سؤالًا غبيًا، لكن فقط نريد أن نعلم.

– قبل أن أجيب على هذا، أريد أن أبشركم بأن سجين قفص الذكريات حر الآن.

– حقًّا... هذا خبر جيد، لقد كان الكثيرون ينتظرون هذا الخبر المميز.

– ثانيًا، سبب تغييري لغرفتي هو أني أردت ترك كل شيء فيها... ذكرياتها وآلامها وأحزانها، وهذا لا يعني أني لا أحب تلك الغرفة، بالعكس، إنها المفضلة لدي، لكن تبقى تلك غرفة الشاب السجين أريان، وهذه غرفة الكاتب أريان.

– نعم، هذا واضح، فالملصقات وصور أغلفة الكتب المعلقة على جدرانها توحي بذلك، إذًا متى سنراك في المعرض؟

– نعم، سأكون بكل تأكيد، كما أريد أن أخبر كل معجبيّ بأن عملًا فنيًّا جديدًا لي قادم.

– هلا حدثتنا، سيد أريان، عن شعورك بعد خروجك من غرفتك بعد سنتين؟

– هم! بدا الأمر أشبه بالحلم بالنسبة لي، وكأنني عشت لحظات في الخيال، كنت مشتاقًا فعلًا للخارج لبعض الحرية، لبعض الهواء النقي والنسمات العطرة.

– إذًا أظن أننا أنهينا أسئلتنا، لقد كانت هذه فقرة صغيرة مع كاتبنا أريان، سنلقاه بالتأكيد في فقرة أخرى، وربما يكون لقاؤنا القادم في معرض الكتاب، من يدري.

– نعم، سيسرني لقاء كل الذين أُعجبوا بكتاباتي المتواضعة.

– حسنًا، هلا أوقفت التصوير يا علي... هاي، علي، أوقف التصوير.

– لقد غاب ثانية، هههه.

– ههه، إنه غريب حقًّا!

– لا، أنا فقط...

– أحم أحم، علي، عليك أن توقف الكاميرا أولًا...

– حسنًا... حسنًا، كدت أنسى.

لقد مر يوم جميل جدًّا، ضحكنا كثيرًا على المسكين علي، لكنه لم يكن يملك أية مشكلة، فقط واصل الابتسامة كالغبي، وعندما انتهى وقتنا وقررت شيماء المغادرة، رافقتها إلى الباب، وبينما هي تدير ظهرها، قلت لها:

– شيماء، ألن تتركي شيئًا لعلي؟!

– ماذا يمكن أن أترك له مثلًا؟

– لا أدري، لكني رأيت نظراتك أنتِ أيضًا إلى علي.

– أي نظرات تقصد؟ أنت مخطئ!

– تلك النظرات لا تخفى عليّ أبدًا، إنها نظرات إعجاب، ولا أرجح أن تتوقف عند هذا الحد.

– حسنًا، لقد هزمتني، خذ هذا رقمي على البطاقة، أخبره بأن يتصل بي إن أراد شرب قهوة في مساء ما.

– شكرًا، سأفعل... هذا سيسر عليًّا، ذلك الغبي، كثيرًا.

– إلى اللقاء، أريان، أراك فيما بعد.

عدت إلى علي بعدها واستلقيت على الأريكة دون أن أتحدث إليه، فظل ينظر إليَّ بغرابة إلى أن سألته:

– ما بك تنظر إليَّ هكذا، لقد ذهبت؟

– نعم، أعلم...

– ولماذا ترمقني بهذه النظرة؟

– لا أدري...

– فعلًا، أنت تتصرف بغرابة هذا اليوم، اجلس مكانك وكف عن التحديق بي، فأنت تزعجني هكذا.

– لا أريد... لا تتكلم معي، أنت هو الغبي.

– هاي، أنت هل تشرب القهوة؟

– أنا لا أحب شربها، وأنت تعلم هذا، لمَ تسأل؟

– عليك أن تبدأ بشربها من الآن فصاعدًا.

– ولماذا سأفعل هذا؟!

– خذ هذه بطاقة شيماء، لقد تركتها من أجلك، قالت إنه في حالة كنت تود شرب القهوة، اتصل بها.

– ما الذي تقوله، هل أنت جاد في هذا!

– وهل سأمازحك في مثل هذه الأمور؟ لم أتأخر في الخارج عبثًا، بل كنت أقنعها بالإعجاب الذي بينكما.

– أنت رائع يا رجل، شكرًا لك، سأبدأ بشرب القهوة من الآن.

– ألم أقل لك أن تركز فقط ولا تفسد الأمور بغبائك، وسيكون كل شيء على ما يرام.

– نعم، قلت!!

– أعتقد أنه على والدتك أن تنسى أم تلك الفتاة الغريبة، فلاعب آخر قد دخل السباق.

– أتعلم شيئًا؟ سأخبرها عندما ألتقي بها.

– بماذا ستخبرها؟ ومن ستخبر؟

– سأخبرها بأني أحبها، طبعًا.

– بهذه السرعة!!

– ولمَ الانتظار، لقد وقعت بحبها من أول نظرة.

– وكيف علمت؟ لا تجبني الآن؛ حينما تسألك هي هذا السؤال، أجبها.

- لعل الأمر قد يكون صعبًا، لكني سأفعلها مهما كلفني الأمر.

لقد ظهرت على صديقي ملامح السعادة الغامرة؛ فهو يعيش مشاعر الإعجاب والحب لأول مرة في حياته. لا أعلم ما المميز في شيماء حتى وقع فيها بهذه الطريقة، إنها فتاة جميلة ولطيفة... لكني متأكد بأنه يراها مميزة بشكل مختلف تمامًا عن كل من رآها من قبل. هكذا هو الحب يأتي بغتة ودون سابق إنذار، حتى إن حاولت تفسير الأسباب فلن تستطيع، وإن فعلت ذلك فأبشر: أنت لست واقعًا في الحب. كم هو غريب هذا الشعور الغامر! لقد ذكرني عليٌّ بأول لقاء لي مع الوردة الحمراء، لقد أُتيحت له الفرصة الآن لأن يعبر عن تلك المشاعر التي كنت أحاول بمشقة شرحها له، لكن من دون جدوى. أتمنى من أعماق قلبي أن يحب مثلي، وأتمنى ألا يعيش قصة كقصتي.

هذا العام غريب حقًّا، عالم مليء بالصدف الجميلة والسيئة في بعض الأحيان، لكن ما يمنح الأمر جماليته هو أنه لا شيء مخطط له، بل يحدث فجأة ودون أن يكون في الحسبان.

بعد يومين، قرر علي أن يتصل بشيماء ويدعوها لشرب قهوة في إحدى المقاهي، فاتصل بها ودعاها، وهي بدورها قد وافقت على شرط أن يلتقيا بعد الرابعة مساءً. انتظر الموعد على أحر من الجمر، كانت الدقيقة

تمر عليه وكأنها ساعة، ناهيك عن التوتر الذي خيم عليه... وصل إلى المقهى على الساعة الرابعة تمامًا، وظل ينتظرها والوقت يمضي إلى أن وصلت الساعة الخامسة والنصف. شعر بخيبة أمل من انتظاره الذي طال، فقرر أن ينتظر نصف ساعة أخرى، وإن لم تأتِ فسيغادر بعدها... مر الوقت عليه كالأيام إلى أن انتهت المهلة، فيئس من مجيئها، وبينما يغادر المقهى مديرًا ظهره... نادته:

– هاي علي، إلى أين؟

استدار مرعوبًا متفاجئًا:

– نعم، لا، ليس لأي مكان... فقط مللت من جو المقهى وأردت استنشاق بعض الهواء النقي.

– هل انتظرت طويلًا؟ آسفة إن كنت قد تأخرت عليك.

– في الحقيقة، لقد تأخرتِ كثيرًا، لقد وصلت هنا مع الساعة الرابعة تمامًا.

– حقًّا! لكننا اتفقنا بعد الساعة الرابعة.

– لو تأخرتِ لحظات قليلة أخرى لكنت وصلت إلى منزلي الآن،

على كلٍّ لا يهم، المهم أنك أتيتِ أخيرًا.

– نعم بالتأكيد سآتي، لقد وعدتك بالمجيء.

– حسنًا، إذا تفضلي لندخل ولنشرب شيئًا، بعدها نتحدث.

دخلا المقهى وأتى النادل:

– ماذا تشربان سيدي؟

– اسأل الآنسة أولًا.

– قهوة لو سمحت.

– نعم بالتأكيد آنستي.. وأنت سيدي ماذا تشرب؟

– أنا أيضًا مثل طلب الآنسة.

تحدثا للحظات وأتى طلبهما.. وضع النادل القهوة على الطاولة ورحل.

– تفضلي شيماء اشربي قهوتك قبل أن تبرد، ولنتحدث بعدها.

– قل ما لديك.. سنتحدث بينما نشرب قهوتينا! إذًا ماذا لديك؟

– أنا! لا شيء!

بدا لي وكأن عليًّا وقع في مأزق، فالأمر أصعب مما كان يظن، ليس بتلك السهولة، لا سيما عندما تكون المشاعر صادقة.

– لا شيء! أمتأكد مما تقول؟ أخبرني أريان بأنك تريد مصارحتي بشيء ما.

– أريان... ماذا... في الحقيقة، أجل أريد أن أخبرك بشيء.

– إذًا، ماذا تنتظر؟ قل ما لديك.

– صراحة، أنا معجب بك كثيرًا منذ أن رأيتك في بيت أريان.

– قل شيئًا جديدًا، هذا أعلمه. لو لم تكن معجبًا بي لما جئت بي إلى هنا.

– نعم، أنتِ على حق، هههههه...

– اسمع، لا تتوتر، اعتبر وكأن أريان معنا الآن وهو ينظر إليك ويهمس في أذنك ويقول لك: قل كل ما يجب أن تقول.

– أريان... نعم، أريان، نعم، فعلًا.

– حسنًا، إذًا تكلم وقل ما لديك!

– أريدك أن تعلمي أنه منذ أن رأيتك توقفت عقارب ساعتي على منظر عينيك، فوقعت فيهما كغريق يتخبط من رمش إلى حاجب دون النجاة، فلا يصل لشيء إلا شفتيك، وهذا الشعر الذي يغطي نصف وجنتيك كغيم الليل يغطي أجزاءً من القمر، فلا يزيده إلا جمالًا.

– لقد بدأت أشك أن أريان معنا فعلًا، ههه، كلامك هذا جميل، لا تمدحني أكثر وإلا وقعت في حبي.

– أنا أحببتك بالفعل، ما عاد هناك مفر من الهوى.

– وكيف علمت أنك تحبني؟ يعني، بهذه السرعة! ألا تظن أنك تسرعت في قولها؟

– قال أريان بأنك ستسألينني هذا السؤال.

– وهل وجدت الإجابة أم لا زلت تفكر فيها إلى الآن؟

– لا أعلم ما يكفي، لكن علمت أني أحببتك عندما رأيتك وبدأ يدور القمر تحت سقف المنزل، والنجوم ترقص حوله، عازفو الكمان يعزفون مقطوعات رومانسية، وأتيه في عينيك.

– هذا جنوني، أتعلم هذا؟!

– نعم، أعلم، لكني سأكون سعيدًا حقًّا عندما أعلم لمَ أحببتني أنتِ؟!

– أنا!

– نعم، أنتِ. من غيرك بهذا الجمال يقف أمامي؟

– توقف عن التحديق بي في عيني للحظة لكي تتركني أجيب على سؤالك.

– حسنًا كما تريدين... أنا أنظر عبر الزجاج الآن، يمكنك التحدث.

– لا.. لا تتوقف عن التحديق والنظر في عيني أبدًا، فأنا أحببت نظرتك إليَّ.

– هلا وعدتني بألا ترمقي أحدًا غيري بهذه النظرة التي ترمقينني بها الآن، فقد تلاطم الموج في عينيك وانهار البنيان، وشيء داخلي يهتز طربًا وكأنه يتمنى لو يسري فيه دمك.

– أتعلم شيئًا! حينما سمعت قصة أريان في أول لقاء صحفي لي معه، شعرت وكأنه يحكي قصة خيالية.

– نعم، وأنا كذلك. لطالما كانت كل الأشياء التي يقولها عن الحب غموضًا وأحلامًا في نظري، والآن كلانا يدرك أنه فعلًا الحب... الحب الذي جمع كلانا في هذا المكان.

انتهى لقاؤهما بعد ساعتين من الحديث والاعترافات المثيرة. لتلمح شيماء قهوة علي ولم ينقص منها شيء، فسألته:

– لمَ لم تشرب قهوتك؟

– حسنًا، سأشربها، لقد نسيت أمرها تمامًا.

ثم شرب كأسه دفعة واحدة، وبدا على وجهه الاستياء من طعمها الذي لا يروق له، فسألته:

– ما بك؟ ألا تحبها؟

– في الحقيقة، أنا أكره القهوة، وطلبتها فقط لأنك طلبتها.

– لا، كان بإمكانك أن تطلب شيئًا آخر ما دمت لا تحبها.

– من أجل بسمتك، أشرب كأس سم ولا أهتم لما سيحدث فيما بعد، ما دمت أمامي.

– لا تقل هذا مجددًا، لست مرغمًا على فعل شيء لا تحبه.

– حسنًا كما تشائين!

– لكني أحب حبك هذا لي.

غادرا بعدها المقهى وأوصلها إلى منزلها بعد حلول الظلام، فلما قرعت الباب ناداها:

– شيماء...

– نعم؟

– اعتني بنفسك جيدًا، في المرة القادمة التي سنلتقي فيها سأكون جاهزًا.

– جاهزًا لماذا؟!

– ستعلمين حين نلتقي مرة أخرى.

ثم تراجع هو بخطوات بطيئة، وهي تبتسم له، وفتح باب منزلها وغابت، وانتهى اليوم الحافل بالمشاعر السعيدة لكليهما.

أنا أكثر تعلقًا بقصة علي صراحة، لا أعلم لمَ؟ لكن حتى هذه الأحداث التي لا تتشابه تذكرني بقصتي... ربما المشاعر في الأماكن والأحداث تتشابه.

لم ينتظر المسكين حلول الصباح ليأتي ويخبرني عن سعادته أمس، قال لي بأن هذا من أسعد أيام حياته، لقد تغيرت حياته تمامًا في صدفة واحدة أكملت ذلك النقص الذي كان يشعر به. فلما أنهى حديثه وانفعاله، سألته:

– لقد اعترفت لها الآن وهي كذلك، ما هي خطوتك التالية؟

– لقد فكرت في هذا مسبقًا، عندما أعود من الجيش في العطلة القادمة سأذهب أنا وأمي لخطبتها.

– فكرة جيدة، أوافقك الرأي، ليس هناك وقت للتردد.

– نعم، كذلك يا صديقي.

– أريدك أن تعدني بشيء يا علي!

– ما هو؟ قل، أنا أصغي إليك.

– أريدك أن تبقى مع شيماء إلى الأبد، إياك أن تجرحها يومًا ولو بكلمة واحدة، كن لها كل شيء... أبًا وأخًا والعالم أجمع، احرص على أن تبقى بسمتها مرسومة على وجهها دائمًا.

– أنا أحبها يا أريان، من الطبيعي أن أفعل من أجلها كل هذا!

– فقط عدني بأنك لن تفعل ما يؤذيها.

– حسنًا، أنا أعدك بذلك.

بعد لحظات، ذهب علي إلى بيته، وأنا اتصلت بشيماء في وقت متأخر من الليل:

– مرحبًا شيماء، كيف حالك؟

– بخير وأنت؟

– أنا كذلك، أريد أن أحادثك في شيء مهم.

– عساه خيرًا، ما هو هذا المهم الذي جعلك تتصل في هذا الوقت من الليل؟

– أريد أن أحادثك بأمر يخص عليًّا.

– علي، ما به؟ أهو بخير؟

– نعم، بخير، بخير، لقد ذهب من عندي قبل ساعتين فقط.

– إذًا، قل ماذا أقلقتني!

– أريدكما أن تعلما أنكما أقرب صديقين لي، وأسعدني جدًّا أن تقعا في حب بعضكما.

– إذًا، ما الأمر الغريب في هذا؟!

– أتمنى أن يدوم حبكما هذا للأبد، هلا وعدتِني بشيء؟

– ما هو؟

– عديني بأنك لن تتخلي عنه أبدًا، عديني بأنك ستكونين له الأخت والحبيبة، عديني بأنه سيكون لكِ إلى آخر لحظة.

– أريان، لا تبدو على ما يرام، ما بك؟!

– فقط عديني بهذا وسأكون بخير، أرجوك، عديني بأن تمسكي يده حين يتركها العالم أجمع.

– أنا أعدك بكل هذه الأشياء التي ذكرتها، فقط قُل لي ما بك، تبدو حزينًا للغاية.

– لا شيء، فقط لا أريد أن يحدث لأحدكما كما حدث معي، لا أريد أن يُكسر قلب شخص عزيز عليّ.

– أرجوك، لا تقلق حيال هذا، صديقك في مأمن معي.

– وأنا سأحرص على أن تكوني في مأمن معه، لقد جعلته يعدني أيضًا بهذه الأشياء، وويله إن لم يفِ بوعده.

– أتعلم شيئًا يا أريان؟ يومًا بعد يوم أزداد قناعة بأنك شخص لا مثيل له في هذا العالم، كيف تفكر في الكل ولا تفكر في نفسك؟

– لا تهتمي لهذا، اهتمي فقط بعليٍّ. وشيء أخير؛ غدًا سأغادر المدينة في رحلة إلى أحد الجزر في أوروبا.

– حقًّا، لماذا؟ وهل ستتأخر؟ وماذا عن الكتاب الذي كنت تنوي نشره؟

– لقد قررت أن أغير الجو قليلًا، سأذهب في رحلة للبحث عن بعض الإلهام، والكتاب سأنشره بعد عودتي، أخبري عليًّا بهذا.

– لماذا لا تخبره بنفسك؟

– إن أخبرته، فلن يسمح لي بذلك، إن أخبرته بعد رحيلي فسيتقبل الفكرة، ثم إنني عندما أعود فلن أجده هنا كما تعلمين.

– حسنًا، كما تريد أريان، إلى اللقاء، وحادثنا عندما تصل، لا تنسى.

– آسف... سأترك هاتفي هنا، أرغب في أن أعيش حياة المغامرة لفترة قصيرة ثم أعود إليكم.

– يا لك من أحمق، كما تريد.

– ههه، إلى اللقاء.

صباح الغد، حزمت حقائبي وتوجهت إلى المطار، كنت قد حجزت رحلتي فيه... ساعة من الانتظار ثم أقلعت الطائرة، وها أنا ذا بين الغيوم. لطالما حلمت يومًا بأن أطير، وها هو ذا يتحقق. قررت أن أعيش هذه المرة وحدة مختلفة كليًّا. قررت أن أكون وحيدًا وفي بلد غريب أيضًا، لكني شعرت بالحرية أكثر بين الغيوم البيضاء في أحضان السماء الزرقاء، وها أنا وجدتني ووجدت حريتي بعيدًا... خمس ساعات في الهواء ثم حطت الطائرة من جديد في المطار. أقلتنا حافلة بطابقين، وها هي ذي أوروبا الساحرة،

بلاد مختلفة تمامًا عن بلدي، جميلة ومنظمة بأسلوب راقٍ. الشقراوات يملأن كل الأماكن. تجولنا في المدينة اليوم كله تقريبًا، ما عدا ساعات الطائرة بالتأكيد، كما تعرفنا على بعض ملامح المدينة التي تميزها.

بعد يوم متعب، حل الظلام وتوجهنا إلى الفندق. دخلت واستلقيت في سريري، فنمت مباشرة دون التفكير في أي شيء إلى أن استيقظت باكرًا صباح الغد، وأقلتنا الحافلة السياحية من جديد. أنا وحدي، لكني لست بمفردي، كان هناك مجموعة سياح آخرين يبدو أنهم أتوا لنفس الغرض الذي أتيت من أجله. وهذا ما كنت أنتظره، الخروج من المدينة إلى الجزيرة المجاورة لها... أحاول الصعود إلى الطابق العلوي للحافلة، اصطدمت بفتاة شقراء... حسناء كالأميرات، بأعين زرقاء ساحرة. نظرت إليها بتمعن، بدا لي وجهها مألوفًا شيئًا ما وكأنني رأيتها في مكان ما... لتقاطع تفكيري معتذرة:

– آسفة، لم أنتبه إليك!

فأجبتها بنبرة هادئة تمامًا:

– لا عليك، أنا أيضًا لم أكن منتبهًا إلى طريقي! يمكنك العبور أولًا.

– شكرًا، هذا لطف منك.

صعدت هي ثم أنا بعدها، جلست هي في أحد المقاعد الأمامية. أما أنا، فقد توجهت إلى آخر المقاعد، وضعت سماعات جهاز الموسيقى الخاص بي، واستمتعت برحلتي إلى أن قاطعتني مجددًا.

- مرحبًا، أيمكنني الجلوس هنا؟

- نعم، بكل تأكيد يمكنك!

جلست بجانبي لبعض الوقت، وبعد أن ملت من صمتي، حادثتني قائلة:

- أنا أُدعى ليزا، وأنت؟

- ليزا، سررت بمعرفتك، أنا أُدعى أريان.

- تشرفت بمعرفتك، أريان.

- أشعر بأني رأيتك في مكان ما، لكني لا أستطيع التذكر. هل سبق والتقينا من قبل؟!

- لم يمضِ على لقائنا يومان... لقد تشاركنا مقاعد الطائرة أيضًا. ألا تذكر حقًّا؟

– نعم، الآن تذكرت. اعذريني، لم أتذكرك في البداية.

– ربما كنت متوترًا في الطائرة، لذلك لم تنتبه إلى الشخص الذي جلس بجانبك. هذه أول رحلة لك في الطائرة، صحيح؟

– نعم، هي أول رحلة، لكني لم أكن متوترًا، بل فقط كنت أستمتع بتواجدي بين الطيور في السماء. هذا كل ما في الأمر.

– أوه، حسنًا، هل جئت لزيارة الجزر خلف المدينة؟

– نعم. هل سبق لك وزرتها من قبل؟

– في كل عطلة أزورها، هذه بلدي.

– هذا يفسر جمالك، يا آنسة!

– عذرًا، أليس في بلادك نساء جميلات؟

– بلى، هناك الكثير، لكني لم أقصد أنك أجمل منهن، بل قصدت بأن جمالك ليس عربيًّا.

– حسنًا، شكرًا على المجاملة.

– لا داعي للشكر، يا آنسة.

– هلا رافقنا بعضنا أثناء هذه الرحلة؟ سأكون دليلك في هذا البلد.

– شكرًا، أقدر هذا... لكني لا أحتاج أحدًا يرشدني، جئت إلى هنا لأكون وحدي، لا أريد أن يزعجني أحد.

– حسنًا، لا بأس كما تريد.

انزعجت من كلامي الفظ معها، وعادت إلى مقعدها الأمامي. لبثت بضع دقائق، ثم ذهبت إليها، لم أستطع أن أتجاهل حزنها بسبب سوء معاملتي لها... جلست بجانبها، ثم سألتها:

– هل هذه الجزر جميلة حقًّا كما يقال عنها؟

فأجابتني غاضبة:

– لا أعلم، أنت ذاهب، اكتشف بنفسك.

– هل تعرفين شخصًا يمكن أن يكون دليلي؟ فأنا غريب عن هذه الأماكن.

– انظر إلى الأمام، اذهب واسأل السائق، فهو يعلم كل الأماكن هنا.

– حسنًا، أنا آسف، لم أقصد أن أكون فظًّا معك قبل قليل.

– ماذا قلت؟

– آسف.

– حسنًا، لا بأس، سأكون دليلك في الجزر.

– شكرًا، أقدر لك هذا، يا آنسة.

– توقف عن مناداتي بآنسة، لقد أخبرتك أن اسمي ليزا... أتحب أن أناديك بالكاتب أريان أمام الناس؟

– لا، بالطبع... مهلًا، كيف علمتِ؟!

– لقد بحثت عن اسمك، لأنه عندما أخبرتني به في المرة الأولى، شعرت بأني سمعته في مكان ما. اتضح بعدها أني سبق وقرأت أحد مؤلفاتك.

– حقًّا؟ وما أدراكِ أنتِ باللغة العربية!

– أسأتَ تقديري، أنا أتحدث العربية جيدًا وأحب الأدب العربي.

– هذا جيد حقًّا!

بضع لحظات أخرى، ووصلنا إلى الجزر... المكان كان مختلفًا تمامًا، أكثر مما كنت أتوقع، حتى الطبيعة في هذا البلد تختلف عن بلدي... أعجبني المكان حقًّا، شعرت بارتياح شديد. كما ساعدتني ليزا كثيرًا، فقد أرتني جلَّ الأماكن في تلك الجزر... ذهبت إلى منطقة قرب الشلال الكبير، كانت أول مرة أرى فيها منظرًا بذلك الجمال، ففتحت ذراعي أمام حافته، ألتقط نسمات الهواء البارد، وغمرني الهدوء الشديد، وكأنني غبت عن الوعي وسرت في الوجود وأنا في مكاني مادًّا ذراعي... بقيت ليزا تحدق بي، ربما تأخرت على تلك الحال، لكنها انتظرت دون مقاطعتي، ولما عدت إلى الوجود، وجدتها لا تزال تحدق بي. فسألتها:

- ما بكِ؟

- أنا فقط أتساءل كيف يمكنك أن تكون بهذا الهدوء التام... الناس يأتون هنا لالتقاط الصور ويأتون مع العائلة وأنت!!

- لن تفهمي.

- اجعلني أفهم إذًا.

- أنا جزء من الطبيعة، أكتمل كلما وجدتني فيها، فأصبح كالشجر وكنسمات الهواء وكالماء الذي يجري في هذه الأنهار.

– سأحاول أن أفهم فيما بعد، إذًا ماذا سنفعل غدًا؟

– غدًا لا شيء، سأحزم حقائبي وأعود إلى بلدي من جديد.

– أحقًّا ما تقول؟ أنت لم تكمل أسبوعًا واحدًا هنا.

– عليّ أن أعود، فقد أتيت لأغير الجو قليلًا فحسب، فلدي الكثير من الأعمال التي تركتها خلفي.

– لكن...

– لماذا لكن؟ أهناك شيء تريدين إخباري به؟

– لا... لا شيء مطلقًا.

غادرنا بعدها المكان، وفي صباح الغد وجدت ليزا بانتظاري أمام الفندق... أتت لتودعني قائلة:

– سأشتاق إليك، أريان، وسأحتفظ بهذه اللحظات القليلة التي قضيتها بقربي.

ابتسمت لها قائلًا:

– اعتني بنفسك جيدًا، يا ليزا.

ثم أدرت لها ظهري بعد ذلك متوجهًا إلى المطار، لكنها لم تكتفِ. تبعتني خلسة، وأثناء استقلالي سيارة أجرة، رأيتها تتبعني في مرآة السيارة... بعد لحظات، نزلت في المطار، وعندما رأتني أبتعد خلف الحواجز الأمنية، غادرت المطار... بعدها انطلقت وأنا أخذت وجهة جديدة في أوروبا. في الحقيقة، لم تنتهِ الرحلة بعد، هناك الكثير من الأماكن التي ينبغي لي زيارتها... استأجرت دراجة بخارية وبدأت أتجول من مكان لآخر، ومن مدينة لأخرى. عشت لحظات مميزة، ففي كل يوم مكان جديد ووجوه جديدة، وأتعرف على أشياء مختلفة...

مر أسبوع منذ أن رأيت ليزا في المطار تتبعني... ثم وصلت إلى مدينة البندقية. كيف أصفها دون أن أنقص شيئًا من جمالها؟ لا أدري، وما زادها جمالًا هو تلك القوارب التي تسبح داخل أزقتها... وبينما أنا مارٌّ من جسر معلق، تتدخل الصدفة ثانية لتحرك موازين كل شيء؛ اصطدمت بفتاة أخرى للمرة الثانية، وعندما نظرنا إلى بعضنا... كانت تلك الفتاة هي ليزا نفسها!

– أريان، هذا أنت!!

– نعم، ليزا، كيف حالك؟

– ألم تغادر قبل أسبوع؟

– لا، لم أفعل.

– لكني رأيتك تعبرين الحواجز في المطار!

– لقد فعلت هذا لتضليلك فحسب. عندما رأيتك تتبعينني خلسة، لم أكن أنوي الذهاب حينها.

– لكن لماذا تفعل هذا؟ لماذا تكذب عليّ؟

– اعذريني، لم أكذب عليكِ هكذا وحسب، لقد فعلت هذا لسبب!

– أي سبب يجعلك تهرب مني بهذه الطريقة؟ جل ما أردته هو قضاء بعض الوقت معك.

– ألا تعلمين، أم أنك لم تلاحظي؟ كل المؤشرات كانت تدل على أنك ستقعين في حبي!

– لماذا تقول هذا؟

– لا، إنها الحقيقة، نظراتك إليَّ وكل شيء كان من بوادر قصة حب مؤلمة من طرف واحد.

– كيف تقول هذا الكلام يا أريان؟

– اعذريني إن كنت قاسيًا معك أو فظًّا في كلامي، لكن أنا لا أريد حدوث شيء من هذا، لا أرغب بمزيد من الحب.

– أنا أيضًا لا أريد شيئًا من هذا، فقط كنت أريد أن نكون أصدقاء.

– لا تقلقي حيال هذا، أنا أعتبرك صديقتي فحسب، ولن تكوني يومًا أكثر من هذا.

– نعم، أعلم، لا تقلق أنت.

– حسنًا، هذا جيد.

– هل لي أن أسألك شيئًا بينما نتمشى؟

– نعم، تفضلي.

– كيف تنوي أن تكمل حياتك وأنت تتهرب من النساء بهذه الطريقة؟

– سأعيش، لا تقلقي.

– ما هو هدفك في هذه الحياة؟ لا بد أن تحتاج يومًا إلى امرأة تتزوجها. أعلم أنك لا تزال شابًّا في مقتبل العمر، لكن يومًا ما ستحتاج شريكة حياة. لا أتحدث عني، فكلٌّ منا من ديانة مختلفة، لا مجال لذلك.

– أول مرة تسألين فيها سؤالًا في محله، هدفي في هذه الحياة هو أن أكتب وأكتب وأعمل، وأريد أن أجمع الكثير من الأموال.

– هذا فقط، كتابة ثم جمع المال، إلى متى؟

– إلى أن أجمع ما يكفي لأشتري قطعة أرض في الجبل. سأبني فيها بيتًا خشبيًّا جميلًا كتلك البيوت في الطبيعة الأسترالية، وفيه نوافذ مرتفعة تمكنني من رؤية أضواء المدن المجاورة وأنا في سريري أقرأ كتابًا ما.

سأعيش فيه وحدي مع كتبي وكتاباتي، سأقضي فيه ما تبقى من عمري. ربما أفتتح فندقًا هناك إن شعرت بالملل.

– خيالك خصب يا أريان.

– وكأنك سخرتِ مني!

– لا، بالعكس. ليست أحلامًا هذه، بل طموحات ستتحقق. سأكون عصفور الجبل الحر يومًا ما. ما أقصده هو أن طموحاتك جميلة.

– هي كذلك، وإلا لما اتخذتها طموحات لي.

– نعم، كذلك.

– إذًا، أين هي وجهتك التالية؟

– أنهيت رحلتي بالفعل، لا تقلقي، لا أهرب هذه المرة.

– لا بأس، على كلٍّ توقفت عن السعي خلفك.

كانت تريد أن تلمح بأنها كانت تسعى من أجلي، لكني تجاهلت التفكير فيما تقول. هذا أفضل لكلينا. كنت أعلم أنها بدأت تقع في حبي من أول لقاء لنا، ولطالما أبديت عدم اهتمامي ومعرفتي بالموضوع لأنه لا مستقبل مشرق لي في الحب، هذا أراه مناسبًا أكثر. ودعتها مساءً، وقضيت تلك الليلة في فندق هناك. وصباح الغد، حزمت حقائبي وتوجهت إلى المطار من جديد. ساعتين من الانتظار وصعدنا للطائرة. في الحقيقة، أنا أتحمس للطيران أكثر من زيارة الأماكن التي تحط فيها الطائرة. أقلعت

الطائرة متجهةً للوطن، بعد وصولي مساءً ارتحت ساعة أو أقل، ثم اتصلت بشيماء، أخبرتها بأني قد عدت.

– كيف الحال شيماء؟

– مرحبًا أريان، كيف هي أمور رحلتك؟

– لقد عدت توًّا من أوروبا.

– حقًّا لم تتأخر كما قلت.

– أعلم، لكني أردت العودة قبل أن يذهب علي.

– نعم، جيد أنك فعلت هذا.

– إذا، اتصلي بعلي وأخبريه بأنك في حاجة للقائه الليلة.

– لماذا؟

– سنحتفل هذه الليلة... افعلي فقط ما أخبرتك به.

– كما تشاء.

جهزت نفسي وتوجهت إلى مقهى الأصدقاء. عادةً ما تُقام حفلات أعياد الميلاد وما إلى ذلك في ذلك المقهى، كنت قد حجزت مسبقًا فيه بضعة مقاعد. وبعد لقائنا هناك، جلسنا نتبادل الحديث، وأستمع إلى كلمات العتب من أريان لسفري دون أن أخبره، وأبدى انزعاجه الشديد من ذلك. وبعد إنهائه، أحضر النادل الكثير من الحلوى والمشروبات الغازية. نحن لا نشرب الخمر يا صديقي، ولن نفعل حتى في الحفلات. وتبادلنا كؤوس الصداقة، ثم وقفت أمام الجميع قائلًا:

– فليصغِ الجميع إلى ما أقول، أقصد بالجميع كل من بالمقهى.

– ماذا تفعل أريان، هههه؟

– أنصت يا صديقي، وأنتِ أيضًا يا صديقتي، اليوم سنشرب جميعًا نخب حبكما وصداقتنا.

– لا تقل هذا الكلام أمام الناس، أريان.

– لا، سأفعل يا شيماء، يا سادة، هذان هما العاشقان، يا سادة، وعما قريب سوف يصبحان زوجين. نحن هنا الآن للاحتفال بهما، يا سادة، صفقوا لهما وباركوا من فضلكم.

أنهيت خطابي القصير والجميع يصفق. لحظات صمت أحدق فيها إلى كأسي، وأبتسم دون سبب وجيه. ربّتت شيماء على كتفي قائلة:

– أريان، أين ذهبت؟ ما بك؟

– لا، لا، أنا هنا معكم، هه.

– أنت لم تشرب، ما بك؟ تبدو ثملًا!

– هه، أنا لا أشرب أبدًا، أنا أثمل من فرط المشاعر فقط.

بقي علي ينظر إليَّ دون أن يقول أي كلمة. لا أعلم فيمَ كان يفكر، لكني أرجح أنه كان يتساءل عن سبب فعلي لما فعلت. إجابة واحدة فقط، وهي أنني كنت أقوِّي حبهما وعلاقتهما ببعض.

انتهت الليلة وافترقنا. ذهبا هما من طريق وأنا من طريق. كان قد ذهب علي ليوصل شيماء إلى منزلها ثم يذهب بعدها إلى منزله. دقائق فقط، واتصلت بي شيماء مرعوبة:

– أريان، أين أنت؟ أرجوك، تعال أسرع.

– ماذا هناك شيماء؟ أخبريني ما الأمر؟

– أسرع، هناك مجموعة قاطعي طرق اعترضتنا. اطلب الشرطة فورًا.

– أين أنتم الآن؟!

– خلف طريق حديقة الأماني...

لم تكمل كلامها، وسمعت صوت صراخها ثم قطع الاتصال. دون تفكير مني، ركضت نحوهما بكل ما أتيت من سرعة. استغرقت أربع دقائق ووصلت. رأيت صديقي عليًّا ملقًى على الأرض وقد ضُرب بشدة، ويحاولون أخذ شيماء معهم. لم أستطع التفكير بوضوح، وبدا لي كل شيء دمويًّا، فتقدمت نحوهم.

– هاي، أنت من تكون؟ هل جئت لتُضرب أنت أيضًا؟ هيا، اغرب عن وجهي.

– اتركها... اتركها أيها النذل.

– شباب، علّموا هذا الوغد بعض آداب الكلام. هيا، اهجموا عليه.

كانوا أربعة. تقدم إليَّ الأول باندفاع، وبلمح البصر، سقط جانبي مغشيًّا عليه. غضب أصدقاؤه الحمقى فأتوا أيضًا للانتقام، لكني لم أكن أريان حينها، فكلما أدرت بصري أرى صديقي ملقًى على الأرض وشيماء

تبكي. جُن جنوني، وتقدما إليّ معًا، لكن أيضًا لم يفلحا. أحدهما تلقى ضربة على الوجه، والثاني اصطدم رأسه بسور الحديقة وسقط مغشيًّا عليه أيضًا. بقي واحد منهم وهو يمسك بشيماء. كنت فقط أنظر إلى عينيه وأقول:

– اتركها... اتركها...

– من تكون يا هذا؟ من أين أتيت؟

– قلت: اتركها...

وعندما اقتربت منه، خاف ودفعها نحوي. أخرج سكينًا، وأبعدت أنا شيماء عن طريقي، وبدأت التقدم نحوه من جديد. حاول طعني مرة، وتفاديتها مرة أخرى، وتفاديتها فحاول مرةً أخرى وأخرى، وتفاديتها جميعًا. والمرة الأخيرة التي يحاول فيها طعني لم يستطع... كانت يده قد كسرت، وهو ينظر إليَّ مرعوبًا طالبًا أن أعفو عنه. كنت أنا غائبًا عن الوعي حينها، كان هنالك وحش مكاني فقط، اكتفى بلكمه على وجهه دون توقف، إلى أن امتلأت ثيابي بالدماء. وللحظة، أمسكني علي من يدي قائلًا:

– "توقف! ستقتله!"

حينها توقفت للحظة، ثم استدرت إليه وعانقته وأنا أقول:

– حمدًا لله أنك بخير، أنت كذلك، صحيح؟

كنت خائفًا جدًّا حينها... خائفًا من نفسي.

– نعم، أنا بخير، لقد أغمي عليَّ بضرباتهم فقط، لكن لنغادر الآن، قد تأتي الشرطة في أي وقت، لا نريد أن نقع في المتاعب.

– خذ شيماء إلى منزلها، أنا سأذهب بمفردي.

– يستحسن أن نأخذك نحن إلى منزلك، لا تبدو في حال جيدة...

أخذاني إلى منزلي. كان الوقت بعد منتصف الليل، أدخلاني البيت، ثم أوصل أخي شيماء إلى منزلها بسيارتي. أما عني، فقد كنت منهكًا وسقطت على سريري، ونمت مباشرة. كان متعبًا جدًّا، وعندما استيقظت صباحًا وجدت شيماء وعليًّا في غرفتي:

– ما الذي تفعلانه هنا في هذا الصباح؟

– ليس صباحًا، إنها الثانية عشرة ظهرًا.

– حقًّا، لم أنتبه للوقت، يبدو أني نمت كثيرًا.

– لقد جئنا لشكرك على إنقاذك لنا ليلة البارحة.

– لا بأس، نحن أصدقاء، هل نسيتم؟ أنتما بخير الآن؟

– نحن بخير، أنت الذي لم تكن بخير ليلة أمس!

– لماذا؟

– لا أعلم، لكنك بدوت مختلفًا تمامًا. ثم إني لم أكن أعلم أنك بتلك القوة!!

– القوة... هل ظننت أنني كنت نائمًا فحسب خلال هذه السنتين؟

– لقد رأت شيماء كل شيء من البداية، وحكت لنا ما حدث عندما كنت غائبًا عن الوعي، وكيف حاربت!

– عفوًا علي، لم تكن حربًا وإنما فيلم أكشن مثير، وأريان هو البطل.

– لا تبالغا في كلامكما، هه.

– أتعلم عندما كسرت يد الرجل الأخير، ماذا كنت تقول؟

– هل قلت شيئًا؟ أنا لا أذكر، كما أنني لا أذكر كل ما حدث، أشعر وكأن جزءًا من ذاكرتي محذوف!

– كنت تقول "إياك أن تؤذي من أحب"، كنت تقولها وتكررها بينما تلكم وجهه.

وشيء آخر، لو لم أتدخل وأوقفك، لكنت الآن في السجن، لقد كدت تقتله.

– كل هذا فعلته أنا؟ لا أصدق، هههه. على كلٍّ، لننسَ الموضوع ولنتناول الفطور.

– الغداء يا رجل.

وإن يكن، المهم طعام... أنا جائع.

– حسنًا، هيا.

بعد أن تناولنا وجبة الغداء، جلسنا نتحدث. خطرت على بالي فكرة:

– أمي، غدًا آخر يوم لعلي معنا، وسوف يذهب للعمل ولن يعود إلا بعد مدة.

نعم، أين الغريب في الأمر؟

– فكرت في أنه عليك الاتصال بوالدته وتخبرها بأن تجهز نفسها، ونحن سنذهب لشراء خاتم جميل يليق بأميرتنا شيماء.

– ما الذي تقوله أريان، ألم نتفق على أنه بعد مجيئي؟

– اسمع علي، ليس هناك وقت. لمَ لا نغتنم الفرصة الآن؟ هل لديك أي مشكلة في هذا يا شيماء؟

– لا... ولكن...

– هو يحبك وأنت تحبينه، لكن ماذا؟ أخبري والديك بأن يستعدا.

– ليس هناك مشكلة، لكن في هذا الوقت القصير، ماذا يستطيعان أن يفعلا في هذه المهلة القصيرة؟

– لن يفعلا شيئًا، سيكون هناك فقط تبادل الخواتم.

– نعم، ولدي أريان على حق، وأنت ما رأيك يا جواد؟

– أنا أيضًا أوافقه الرأي، فالوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك.

– ممَّ ستقلق؟ أعلم أن الأمر الصعب في الموضوع هو أن تخبر والديك بذلك، ولهذا أوكلت تلك المهمة لأمي. استرخيا، كل شيء سيكون على ما يرام.

بعد محاولات عدة، استطعت إقناعهما بالفكرة. لقد كان سبب عجلتي في تزويجهما هو أن أجعل من علاقة الحب تلك حلالًا. نحن مجتمع إسلامي نسي كيف يكون الإسلام. ربما أنا أيضًا أخطأت يومًا، لذلك أحاول ما أمكن أن لا يقعا في نفس خطئي، فالأشياء التي لا ترضي الرب لا تدوم طويلًا...

المهم، جهزنا مساء ذلك اليوم كل ما يتطلبه حفل الخطوبة.

صباح الغد، جهزنا عليًّا ببذلة أنيقة وباقة زهور، ثم توجهنا إلى بيت شيماء... رن الجرس، وخرجت أم شيماء لترحب بنا... بعد دخولنا، سألت والدتي أم شيماء:

– أين هي عروسنا؟

– ها هي ستحضر القهوة وتأتي.

– يبدو أنها خجلت، لذلك تأخرت.

– ها هي ذي آتية.

وهذه شيماء تدخل علينا بثوب أبيض بجمال أخّاذ... استدرت جانبي لألقي نظرة على علي، فوجدته حلق بعيدًا عنا وعن الأرض؛ يبدو لي بأنه تاه من جديد. إنه الوقوع في حب نفس الشخص للمرة الثانية. ربتُّ على كتفه لأخرجه من حالته تلك.

هو:

– ماذا؟

– أنت، ماذا يحدث لك؟ وكأنك رأيت شبحًا!

– ليس شبحًا، بل ملاك بثوب أبيض.

– احذر ألفاظك، نحن مع العائلة الآن.

– وإن يكن، أنا أحبها يا صديقي... أحبها كثيرًا.

نظرت إليه وابتسمت.. شعرت بسعادة غامرة لأني جعلت صديقَيَّ سعيدين. بعد ساعة من تبادل أطراف الحديث بين العائلتين، دخلوا في صلب الموضوع وقاموا بلبس الخواتم. وحظي العروسان برقصة أمام العائلة،

لكني أرجح أن كليهما كان يرقص على أنغامه الخاصة. ففي الآذان كمان، والقلب طبول وأجراس، والأصابع بيانو؛ هي أنغام لا يفهمها إلا العاشقون. انتهت قصة علي وشيماء بالزواج وتكوين أسرة صغيرة جميلة.

أما أنا، فخلال تلك السنة حققت الكثير من النجاحات في حياتي وبلغت العديد من الأهداف؛ ثم نشرت كتابي وحضرت أربع معارض دولية في أربع دول مختلفة. كانت هنالك العديد من جلسات التوقيع للمعجبين واللقاءات مع الكُتاب المشاهير. دخلت ذلك العالم الذي لطالما تمنيت أن أدخله... فعلت كل هذا وأنا في عمر العشرين، وأصبح اسمي يعد من بين أشهر أسماء الكتاب. خلال سنة فقط من خروجي من سجني الوهمي، لقد مُنحت الكثير في الحقيقة... الكثير من الألم، والكثير من الوقت للاستيعاب، والكثير من الوقت أيضًا للتفكير في كل معتقد بنيت عليه حياتي...

كانت كلها صحيحة تقريبًا؛ ما من إنسان كامل، لا تنسَ هذا يا صاحِ؛ مهما بلغت من الرُّقي والعظمة ستبقى مجرد إنسان ناقص... لكن يمكنك أن تبحث عن المثالية بين أبناء جنسك وستجدها ما دمت تركز على نفسك... ثم ماذا بعد؟ لقد حضرت زفاف عليٍّ وشيماء اللذين لا تفصلهما إلا أشهر عن الحصول على مولود يزيد حياتهما سعادة... كما

أنـني تزوجـت، نعـم تزوجـت الوحـدة، وأنجبـت منهـا طفلـين: الصـمت والإلهام...

هذا ما اقتصرت عليه حياتي، لم يبقَ سوى القليل وسأنتهي من تجهيز بيتي الخاص على الجبل، وسأحظى بالكثير من المتعة الصامتة في حياتي. ربما إلى الآن لا يزال يظن البعض أني شخص ممل تقتصر حياتي على الجلوس وحيدًا والكتابة والنوم، هذا صحيح ففي أغلب أوقاتي هكذا، لكن هنالك جـزء مـني هـو شـخص محـب للحيـاة، لكـن كالمعتـاد أحـب أن أسـتمتع وحـدي... كـان علـي شـريك متعتي الوحيـد، لكـن الآن هـو شـريك حيـاة، ههه، لم يبقَ له وقت لي؛ أقدر ذلك، سأجرب الكثير من الأشياء... تزحلق على الجليد وركوب الدراجة في المنحدرات، وأيضًا سأجرب القفز المظلي؛ أرغـب في أن أكـون في احتكـاك مباشـر مـع الهـواء، وحينمـا أصـير مسـتعدًّا سأكتب سيرة ذاتية تلخص مسارات حياتي في رواية ستكون أكبر عمل إبـداعي لي. لكـن عنـدما ألتفـت للماضـي، تـدخل نسـمات الحنـين قلـبي، فتجعلني أحن إلى زمن كنت فيه بخير... ماضٍ ذات يوم كنت أراه مستقبلًا مشرقًا سعيدًا، لكنه الآن ماضٍ غطته غمامة الحزن السوداء فصار ذكرى لا تُنسى كباقي ذكرياتي، عشقي الأبدي.

مـرت الأيام وهـا هـو يُكتـب للمسـتقبل السـعيد أن يصـبح ماضـيًا تعيسًـا... هـي ليسـت بـروايتي لكـي أغـير مسـار فصـولها، لكنهـا حيـاتي... تمنيت أن أغـير لحظاتهـا بلحظـات أقـل سـوادًا فقـط. لا أعلـم، أسميـه حقًّـا؟ لكـن ربمـا يسـميه البعـض... لعنـة العشـق الأبـدي. هـي أشـياء لـن تسـتطيعوا فهمهـا لمجـرد قـراءتكم لبضـعة أسـطر، فـلا تزعجـوا أنفسـكم بالتعمـق، فكـل شيء واضح وجلي لدرجة التعقيد... غريب، أليس كذلك؟

عنـدما تعبـت مـن حيـاة الشـهرة واللقـاءات، عـدت في مسـاء إلى بيـتي، كنت متعبًا جدًّا من يوم طويل من التصوير... فتحت باب غرفتي وتذكرت فجـأة غـرفتي القديمـة، فأغلقـت البـاب وصـعدت إليهـا... فتحـت بابهـا ودخلت، كانت مملوءة بالغبار، لم يدخلها أحد منذ خروجي منها، طبعًا أنا من كان يمنعهم من تنظيفها. دخلت وأزحت الغبار عن الكرسي وجلست أحدق في أركانها، فأثار انتباهي الصندوق فوق الرف؛ إنه الصندوق الذي وضـعت فيـه مـذكراتي قبـل سـنة وأربعـة أشـهر تمامًـا. أخـذت واحـدًا منهـا وبدأت أقلب صفحاتها إلى أن توقف بصري على رسالة! وفتحتهـا، فكـان عليهـا اسـم جوري، وضعتها جانبًا وأكملت تقليب صفحات مـذكراتي... لكـن لم يطـل الوقـت وقـد حملتهـا مـن جديـد، لا أعلـم! شـيء مـا دعـاني إلى قراءتهـا، ربمـا فضـول أو شـيء آخـر، لا أدري. وهـي بـين يـدي أحـدق بهـا

للحظات... دقائق متواصلة، ثم استسلمت للأمر وفتحتها، قرأت كل سطر منها بتمعن وتأملت في كل كلمة قالتها فيها!! كانت تقول في رسالتها:

"كتبت إليك هذه الرسالة قبل أن آتي لزيارتك، وقررت أن أعطيك إياها في حالة رفضت العودة معي كما كنا. أردت فقط أن أخبرك فيها بأني كنت أحبك ولا زلت أحبك، ولطالما أحببتك، لم يتوقف قلبي عن الخفقان لك أبدًا. أنا أتابع كل أخبارك، علمت بأنك سجنت نفسك والآن كادت أن تكتمل السنتان على ما أظن، وأردتك أن تعلم أيضًا إن كنت تفعل كل هذا وتحقد عليّ لهذه الدرجة بسبب الحالة التي مررت بها بسببي فسأعاقب نفسي، لا داعي لأن تعاقبني أنت... أنت فقط سامحني، عندما أعود من منزلك سأسجن نفسي أنا أيضًا، سأذوق من نفس المعاناة التي ذقتها أنت، وإن كان هذا عدلًا بالنسبة لك فسأفعل... أنا آسفة على كل الألم الذي سببته لك، أحبك، وبالرغم من أني أحبك فسأتمناك لغيري، واحدة أخرى تكون خياراتها صحيحة تجاهك، تهتم بك وتحبك أكثر مني، وأنا أعلم أنها لن تحبك أخرى أكثر مني. في حالة سامحتني على إساءتي وأذيتي لك، تعالَ إلى منزلي، وستدخلك أمي وتعالَ لزيارتي... أنا لا أدري أنك لن تحبني مجددًا، لكن على الأقل سامحني لأتحرر من سجني فأنا الآن سجينة قفص الندم".

رسالة من حبيبتك السابقة: جوري.

ملاحظة: أحبك وسأحبك للأبد.

بعد إنهائي لقراءة هذه الرسالة، تاهت بي المعاني وتركتها تسقط أرضًا، لم أستطع استيعاب ما يحدث، لمَ تفعل كل هذا؟ ما من داعٍ لفعلتها هذه، لكن هي الآن تسجن نفسها لأنني أهملت قراءة رسالة منها، أنا سامحتها منذ زمن ولم أحقد عليها يومًا، فأنا لا أحقد... يبدو أن خياراتي في هذا الموضوع لم تكن صحيحة. عدت إلى غرفتي واستلقيت بدون أن آكل عشائي حتى، وأفكر في الخطأ الذي ارتكبته، لكن سرعان ما تبادر إلى ذهني أن فكرة السجن هذه أكثر من أن أتحملها، قد تكون تنازلت عنها منذ مدة، لكن لم تكن كلمة سجن وحدها أثرت فيّ؛ كلمات أخرى اخترقت صدري وجعلت فيضًا من الذكريات يعود داخلي، وبسبب هذا ألغيت كل مواعيدي لأسبوع كامل. كنت شارد الذهن من جديد، ولا أجلس إلا خارج المدينة لأفكر بعمق. كان حينها فصل الشتاء وكان الغيم يغطي زرقة السماء، فتزيدها بهجة وحياة في نظري. وفي تلك الليلة وضعت رسالتها على صدري ونمت، وفور أن أغمضت عيني جاءتني في منامي تنادي... التقينا في عناق، وكل منا على ركبتيه راكع، فجأة سقطت

نجمة... نجمة مثبتة على خاتم ركبته في إصبعها، ثم تراجعت بخطوات ضعيفة متلاشية وكأنني أتبدد في السراب. حينها نادتني:

"سنلتقي!!؟"

ثم استدارت إليَّ ببسمة ودمعة قائلة:

"سآتي إليك حين يشاء القدر أن يجمعنا".

لا أعلم ما كان ذلك الحلم، لقد حدث فيه آخر شيء أفكر في حدوثه، ولا أتخيله أبدًا. نهضت بعد انتهاء حلمي مذعورًا وقمت وأنا أفتش أركان غرفتي بحثًا عنها... لكني لم أجدها، ثم عدت للنوم لأستيقظ على غيم الشتاء والسماء السوداء القاتمة.

لم أتردد للحظة واتصلت بعلي دون أن أقول أي مقدمات. قلت:

حتى يهدأ القلب وتتوقف عن الهذيان بسمتها وتقول؛

نسيت أو ألفت غيابها.

ثم تلمح الغيم القادم من بعيد

تنظر لثوانٍ وتداعب نسمات الحنين وجنتيك

وتلثم عطر الذكريات المنبعث من قطرات المطر.

حينها تتراجع للخلف لا تدري!

أتبتسم أم تبكي!

أتهمس أم تصرخ!

أتنتظر أم ترحل!

هل هذا أنت أم شخص آخر!

ثم تسأل نفسك: هل كان الرحيل قاسيًا؟

أم أقسى من القسوة نفسها؟

ماذا تفعل؟ ماذا ستفعل؟

وهل بإمكانك أن تفعل شيئًا؟

آه، مالك لا تنسى... مالك لا تنسى.

رد عليَّ عليٌّ مستغربًا:

ما بك أريان؟ هل أنت على ما يرام؟

فقلت له: أتذكرها، آه، ماذا أفعل؟ فإني لا أكاد أتوقف عن التفكير بها!

ما كل هذا الشوق الخارج عن سلطتي؟

بسمتها... عيناها... صوتها... ضحكتها المجنونة...

كلماتها والخاطرة في خيالي... هي تفاصيل لم أستطع تجاوزها. فهل يعقل أن يطول الأمر على هذه الحال؟

فهمساتها توقظني كل ليلة.

وحتى إن نمت، فطيفها قد استوطن أحلامي.

فأين المفر؟

لا أعلم... لا أعلم كيف أسير في طريق جمعنا معًا،

وأنا حتى الحرف الذي يبدأ به اسمها

يذكرني بها إذا رأيته أو سمعته في مكان ما.

أسئلة وأسئلة ثم أسئلة؟؟؟

لكن هل توجد أي إجابات!

لا توجد إجابات! الأمر الذي يزيد ألمي.

يا تُرى هل كان حبًّا أم غباءً؟!

وبعد أن صمت وصمت علي للحظات، رد علي:

- لازلت تحب جوري يا أريان، أليس كذلك؟

- لا أدري ماذا حدث بين ليلة وضحاها، تغير كل شيء،

كنت قد نسيتها تمامًا لكن...

- لكن ماذا؟

- لكن رسالتها تلك أثرت فيَّ كثيرًا، لم أعلم ما حدث لي!

- أي رسالة؟

- عندما زارتني آخر مرة قبل سنة وأربعة أشهر، تركت لي رسالة.

وتجاهلت قراءتها، وبينما كنت أبحث في مذكراتي، وجدتها.

وماذا تقول في هذه الرسالة؟

– كانت تقول بأنها لم تتوقف عن حبي للحظة واحدة، وأنها ستعاقب نفسها لتقصيرها في حقي. المهم أن أسامحها حتى لو لم أكن من نصيبها.

– بماذا ستعاقب نفسها؟ تحدث قل الكلام كاملًا ما بك!

– قالت إنها ستسجن نفسها كما فعلت أنا!

– قالت هذا قبل سنة ونصف أليس كذلك، وأنت الآن تفكر في الأمر؟

– أتفكر فيما أفكر أم أنني مخطئ؟

– نعم، يمكن أن تكون فعلت ذلك حقًّا... لكني أرجح أنها لم تفعل.

– ما أدراك أنت؟ وإن كانت قد فعلت فعلًا، فسيكون هذا بسبب تجاهلك لقراءة الرسالة... رسالة يا صديقي.

– أعلم... أعلم، هذا ما جعلني لا أفكر بوضوح.

– في رأيي أن تذهب وتتأكد بنفسك، قد تكون في حاجة إليك الآن كما كنت في حاجة إليها أنت في ذلك الوقت.

– سأحاول يا صديقي... سأحاول أن أفعل.

– لا تحاول، بل افعل كل ما بوسعك يا رجل، أعلم أنها أساءت إليك كثيرًا، لكن حتى إن لم تكن تحبها، فاذهب وأنقذها من سجنها.

لقد زادني كلام علي توترًا وتهيّبًا، وبتُّ أكثر تفكيرًا في الأمر، فلم أستطع تجاهل الأمر. وبعد أربعة أيام توجهت صباحًا إلى منزلها... طرقت الباب مرة أو مرتين لكني كنت مترددًا من مواجهتها، وعندما قررت أن أنسحب وأتراجع، فتحت والدتها الباب قائلة:

– من أنت يا بني؟

استدرت إليها، وقبل أن أنطق بكلمة وأقول اسمي، قالت:

– أنت أريان، صحيح!

تفاجأت من الأمر، كيف تعرف اسمي؟ ثم قلت:

– من أين تعرفين اسمي يا خالة؟

صورك تغطي جدران غرفة ابنتي، أنت الكاتب أريان.

– نعم يا خالة، أنا هو.

– تفضل يا بني، ادخل لا تقف عند الباب.

– شكرًا يا خالة.

دخلت مع والدتها لكن لم يكن والد جوري هناك، فسألت عنه:

– أين هو والد جوري يا خالتي؟

– لقد ذهب للعمل يا بني، سيأتي بعد قليل.

– وماذا عن جوري، أليست هنا؟

– لا، إنها هنا يا بني.

لم أرغب في السؤال أكثر من هذا، فبدأنا الحديث عن أحوال عائلتي ومن أين أعرف جوري.

– بني، هل لي أن أسألك؟

– نعم، تفضلي يا خالة.

– من أين تعرف ابنتي جوري؟

– في الحقيقة يا خالة، التقينا صدفة منذ زمن، ومنذ ذلك الحين نحن نعرف بعضنا جيدًا.

– نعم، هذا جيد يا بني، إذًا أنتم أصدقاء!

– شيء من هذا القبيل، هلا ناديتها يا خالة.

– انتظر بني، سأعد لك الشاي وآتي.

– لا داعي لأن تتعبي نفسك، سيسعدني أكثر لو ناديتِ جوري إلى هنا لأراها.

– في الحقيقة يا بني، لقد خرجت لتحضر بعض الأغراض من السوق وقد تتأخر قليلًا.

شعرت وكأن والدة جوري تخفي عني شيئًا، لقد كان واضحًا ذلك التوتر الذي يظهر عليها كلما سألتها عن جوري، لذلك ألححت في طلبي لحضور جوري:

– خالة، أتخفين عني شيئًا بخصوص جوري؟ أهي بخير؟

– نعم، إنها بخير، لكن...

– لكن ماذا؟

– لم تعد معنا منذ مدة طويلة!

– ماذا تقصدين بـ "لم تعد معنا"؟

– إنها تحبس نفسها في غرفتها منذ سنة ونصف تقريبًا، لا نعرف السبب الذي جعلها تفعل ذلك؛ خرجت في يوم لزيارة صديقة لها، وعندما عادت... عادت إلى غرفتها مباشرة ولم تبرح سريرها منذ ذلك اليوم!

– لقد حدث ما كنت أخشاه تمامًا، لقد شعرت بالألم الشديد.. لم أستطع أن أكتم حزني، وأنزلت عيني بسبب قسوتي تجاهها. مرت عليّ لحظات صمت عصيبة، ولم يُسمع صوت شهيق أم تبكي على حال ابنتها، فنهضت إليها وجلست عند ركبتيها ممسكًا بيديها قائلًا:

أرجوك خالتي، لا تبكي بعد الآن، أنا هنا، ستخرج جوري اليوم.

– افعل شيئًا يا بني إن استطعت، أتوسل إليك، فإن قلبي يتقطع على حالتها هذه، لم أرَ بسمتها منذ سنة ونصف، افعل شيئًا.. أتوسل إليك.

– لا داعي لتتوسلي يا خالتي، هذا واجبي، كان عليّ فعل هذا منذ زمن، لكن اعذريني، تأخرت كثيرًا، هلا أريتني غرفتها.

أرشدتني إلى باب الغرفة وطلبت مني البقاء خارجًا. أخذت نفسًا عميقًا ثم طرقت الباب، أعلم مسبقًا أنني عندما أدخل لن أجد فرصة لأتنفس... فترد:

– من الطارق، هل هذه أنتِ يا أمي؟

– لا... هذا أنا أريان.

عندما سمعت صوتها، توقف نبض قلبي للحظة، وعندما سمعت صوتي نهضت مسرعة لتفتح الباب:

– أهلا أريان، كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ أكل شيء على ما يرام؟

– أنا بخير... بخير. هل سأدخل أم سأبقى واقفًا هنا؟

– نعم... نعم، آسفة، تفضل ادخل.

عندما رأتني للوهلة الأولى، شعرت بأنها تتحكم في نفسها بصعوبة، ويداها تحكمان التمسك في ثيابها، وكأنها كانت تمنع نفسها من عناقي:

– غرفة جميلة. بكم استأجرتها؟

– أتسخر مني الآن يا أريان؟!

– لا، أنا فقط أسأل ما الداعي لكل هذا، هل كان ضروريًّا؟

– أجبني أنت أولًا، متى خرجت؟

– قبل سنة ونصف، أي بعد زيارتك لي بيومين على ما أذكر.

– ولِمَ تأتي إليَّ؟ لماذا؟

– قبل أن تقولي شيئًا، أريد أن أعتذر عن كل هذا الوقت الذي أمضيتِه هنا بسببك، أنا السبب في هذا.

– لا، أنت لم تفعل شيئًا، هذا فقط جزاء إهمالي وعدم تقديري لقيمة الكنز الذي كان بين يدي.

– لم يكن هذا أيضًا خيارًا صحيحًا، لقد كان متهورًا للغاية. ماذا لو لم أقرأ تلك الرسالة؟ هل كنتِ تنوين الذبول هنا؟

– كنت متأكدة أنك ستقرأها.

– لقد قرأتها قبل أيام قليلة فقط من اليوم. ماذا لو ضاعت؟ ماذا كان سيحدث لك حينها؟

– كنت متأكدة أنك ستأتي يومًا وستسامحني يومًا حتى لو لم تجد الرسالة.

– لقد سامحتك منذ زمن، لم يكن هناك أي حقد في قلبي تجاهك.

– لكنني جرحتك كثيرًا، لماذا أنت طيب هكذا دائمًا؟

– لا تلوميني على طيبتي، فهذا أنا.

– حسنًا... حسنًا، لا يهم الآن، كيف هي حياتك؟ لا بد أنك أصبحت أكثر شهرة ولديك الكثير من المعجبات.

– نعم، الكثير من هذه الأشياء.

– هل لي أن أسألك، من هي سعيدة الحظ التي دخلت حياتك؟ أريد أن أحادثها وأوصيها بأن تعتني بك جيدًا، فأنت فرصة لن تتكرر في حياتها أبدًا، ولن تجد مثلك مهما فعلت.

– هل لي أن أخبرك بقصة؟ إنها جميلة جدًّا، سوف تعجبك.

– نعم، قولي. أنا أصغي إليك.

– كان هناك شخص يحب فتاة بجنون... وبعد حدوث بعض الأمور بينهم، انتهت علاقتهم، وبعد أربع سنوات من الحروب الداخلية التي تتأجج نارها كلما وضع رأسه على وسادته، ذات يوم ينصت إلى ما يحدث داخله، فسمع حوارًا يجري بين قلبه وعقله... القلب الذي يدعو إلى الحب، والعقل الذي يدعو إلى المنطق والتخلي، لكن القلب أيضًا فقد الأمل في حبها، فحدث العقل قائلًا:

– يبدو أنك كنت على حق حينما قلت إنها لن تكون لك أبدًا!

فأجابه العقل ببرود وقال:

– نعم، الآن أدركت الأمر.

فرد عليه القلب:

– حسنًا، أنا أقبل أن أضع يدي بيدك، ولننسَها معًا.

فأجابه العقل:

– هيا لنفعل ذلك، فقد تعبت من جدالك.

وعندما وضع القلب يده بيد العقل، التفت إليه باستغراب وسأله:

– لماذا تفكر بها؟ إنني أشعر بك ترى صورتها.

نظر إليه العقل ثم سأل:

– ولماذا أشعر بك تنبض باسمها؟

فقال القلب وهو تعلوه بسمة خفيفة:

– كم هي جميلة تلك التي تفكر بها.

فتنهد العقل وبدأ يضحك بصوت مرتفع ساخرًا من القلب ومن نفسه أيضًا، وقال:

– كم هي جميلة تلك التي تنبض من أجلها.

وفي الأخير، لا القلب يئس كما يدعي، ولا العقل يفكر في نسيانها، فهي في مجرى الدم تمشي، كيف لها أن تُنسى.

– أنهيت القصة؟ هيا لنخرج، أمك تنتظر في الخارج، لقد وعدتها بأنك ستخرجين معي.

– سأفعل، فقد وعدتك منذ سنة ونصف بأنه عندما تسامحني وتأتي إليَّ فسأخرج.

– هذا جيد، هيا بنا، غيري ثيابك، سأسبقك.

خرجت إلى والدتها، فكانت تجلس والتوتر والقلق واضحين عليها، فاقتربت منها قائلة:

– سأذهب الآن يا خالة، إلى اللقاء.

– انتظر يا بني لتشرب الشاي، ها هو جاهز!

– لا، لقد تأخرت، شكرًا لك، في المرة المقبلة، عليّ أن أذهب الآن.

– وماذا عن جوري؟ لقد أخبرتك أنها لن تغير رأيها أبدًا.

– يا خالة، لقد وعدتك بأنها ستخرج اليوم وقد وفيت بوعدي، إنها قادمة.

– حقًّا يا بني... أحقًّا ما تقول؟

لقد طار قلب الأم فرحًا لسماع البشرى مني، وضمتني إلى صدرها تشكرني، فقبلت جبينها قائلًا:

– لم أفعل سوى واجبي يا خالة، لقد فعلت ما كان عليّ فعله فقط.

ثم غادرت، لم أشأ البقاء حتى تخرج جوري إلى أمها، كان من الممكن أن تخرج الأمور عن سيطرتي، لذلك ذهبت...

بعد خروجها ومرور لحظات على تعبير الأم عن فرحها بابنتها، نظرت جوري هنا وهناك فلم تجدني، سألت والدتها:

– أمي، أين ذهب أريان؟

– لقد ذهب، طلبت منه البقاء لكنه رفض.

أعلم أنها انزعجت عندما لم أنتظرها إلى أن تأتي، لكن ما باليد حيلة...

مر أسبوع على زيارتي لجوري وخرجت في يوم ماطر، كان لدي لقاء مع أحد الصحافيين في أحد المقاهي القريبة من منزلي ولم آخذ سيارتي... حملت مظلتي وخرجت، ما زلت أذكر ذلك اليوم...

كان ديسمبر، كان يوما ماطرًا جدًّا، وبينما أسير، رفعت بصري إلى جوري تركض نحوي وهي مبتلة تمامًا قائلة:

– هل كان ضروريًّا أن تعقِّد الأمر عليَّ لهذه الدرجة؟!

فقلت:

– ما الأمر؟ ما بك تركضين تحت المطر هكذا بدون مظلة؟

– لمَ لم تخبرني منذ البداية أن ذلك الشخص في القصة هو أنت، وأن تلك الفتاة التي هي أنا حبيبتك جوري، وأن الذي يفكر بي هو عقلك، وأن الذي يحبني هو قلبك، وأنك لم تستطع نسياني أبدًا؟

– وماذا أشرح لك في هذا؟ لقد كان صعبًا عليَّ أن أقولها بعد كل هذا الذي حدث، فتركت لك إشارة لكي تفهمي لوحدك.

– أحمق... أنا أحبك يا أريان، أحبك.

لقد كانت ترتدي فستانًا أحمر، لذلك بدت لي كوردة حمراء تفتحت حديثًا، فاقعة اللون، وعلى موسيقى عازفي الكمان وألحان الناي...

تراجعت للخلف خطوة خطوة، ورميت بمظلتي جانبًا، وأدخلت يدي في جيب بذلتي الداخلي وأخرجت منه خاتمًا... وعلى ركبتيّ انحنيت مستسلمًا للحب ولها، مسلمًا روحي لها:

– جوري، أنا لا أحبك، بل أقع ما بين هوًى وشغف ونجوى وتيم وولع وهيام وغرام. إن كنتِ تسمين هذا حبًّا، فأنا أحبك. هل تقبلين أن تكوني زوجة لي ووردة في بستاني، وقمرًا في ظلامي، ونجمة في سمائي، يا وردتي الحمراء؟

استسلمت هي الأخرى وركضت إلى أحضاني لنصير جسدًا واحدًا بقلبين وروح واحدة، قائلة:

– نعم، أوافق.

فهمست في أذنها:

– لم أكن أتوقع أن يحدث هذا بعد كل ما حصل بيننا، لا أصدق هذا.

– بل صدق، لقد حدث بالفعل.

فأغمضت عينيّ أستشعر دفأها وقلت:

– أسدي لي معروفًا، وابقي هكذا للأبد، فقط هكذا أشعر بالاكتمال. حتى الموت في حضنك أشتهيه الآن يا وردتي الحمراء.

بعض قصص الحب لا تنتهي أبدًا حتى عند فراق العاشقين، وحتى بعد نطق كلمات النسيان، وحتى بعد موت المحبين. وبعض قصص الحب تبقى حبيسة الجدران ما بين باب ونافذتين تطلان على اعتراف أحدهم، طابع الكتمان. وهناك اسم كان فيه اسمان، أحدهما أحب والآخر به ولهان، حتى لو كان كل منهما في مكان، فلهما روح واحدة وقلبان. وتبتسم الحياة حينما تلتقي العينان، سواء ذُرِفت دمعة أو دمعتان. وفي صميم القلب يبقى الحب مدفونًا في ذلك المكان، وسيظل علم الحب يرفرف على اسميها في كل مكان وزمان.

وصيتي الأخيرة:

إياك أن تهمل من تحب، وإياك أن تتجاهل من تحب، فأنت لا تعلم متى يقسو القلب ومتى تبرد المشاعر. حينها لن ينفعك الندم على ما فات، وعندما ستتذكر تلك الرسائل؛ رسائل الحب والاهتمام التي تجاهلتها، فستعاني لبقية حياتك، تنتظر أن يسامحك ويعود ليملأ حياتك بالاهتمام الذي فقدته بسبب سوء معاملتك له.

"لا تهمل من تحب، فقد يرحل ولا يعود مجددًا".

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

الكاتب العشريني محمد روبيو كاتب مغربي حديث النشأة من مواليد 2003 بقرية تسمى خنانسة يبدع في كتابة الشعر وتأليف الروايات.

سجين قفص الذكريات

سجين قفص الذكريات بين الجدران توجد حياة وبين الأضلع توجد خيبات ومن الذاكرة تنبثق كل المعانات، لا النسيان ينفع ولا تذكر ما فات فالحب نار والقلب رفات، ما معنى الوجود بين أشخاص لا يكتمون بضع كلمات وبين أشخاص أفئدتهم داكنات، فإنه لخير لهم الوفاة .
الحب يعطي معنى للحياة والتضحية من أجل من نحب تعطي معنى للحب.

دار بسمة للنشر الإلكتروني
bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com